
محمود سامي البارودي
صبري

محمود سامي البارودي

حياته وشعره

بقلم

محمد صبري

خريج السربون

ومحرر بجريدة السياسة

سنة ١٩٢٣ م — ١٣٤١ هـ

مطبعة الشباب لصاحبها محمد عبد العزيز الصدر

محمود سامي البارودي

بحث أدبي تاريخي فى حياة وشعر المرحوم
محمود باشا سامى البارودى

بقلم
محمد صبري
خريج السربون ومحرر أدبي بجريدة السياسة

سنة ١٩٢٣ م — ١٣٤١ هـ

مطبعة ومكتبة الشباب
بشارع عبد العزيز خلف جامع العظام

محمود سامي البارودي

تمهيد

البارودى يمثل طور الانتقال أحسن تمثيل بشخصيته البارزة فى الشعر ، وهو صلة متينة بين شعر العرب القديم والشعر العصرى ، وهو محيي دولة الشعر بعد العدم، فوجب أن يعنى به المصريون لانه زعيم النهضة الشعرية الادبية التى هى مظهر سام من مظاهر النهضة العامة التي نهضتها البلاد فى القرن التاسع عشر

ولكننا قبل أن نقلب الطرف فى شعر البارودى ونترجم عن الاثر الذى يتركه فى النفس سنقول كلمة اجمالية نحدد بها المراد بالشعر العصرى . لو تفهمنا بالدقة على حدة معنى كلتا الكلمتين « الشعر العصرى» لتجنبنا سبلا كثيرة ضل فيها اللب والفهم وأخطأ فى سلوكها شعراء كثيرون. الشعر شعور « يشعر » به الفرد فى « عصره » والآن نفصل :ــ

الشعر الذى يصدر عن شعور صادق هو الشعر حقيقة، هو الشعر المطبوع المنسجم الذى تنعكس فى مرآته صورة من حياة الرجل يتجلى فيها طابع خاص، وكلما كبرت شخصية الشاعر ازدادت اتصالا بعصره، وقد يمتزج الاثنان امتزاج

الروح بالجسد ، ويصبح طابع الشخصية ممثلا للشاعر وعصره معا

فلأجل أن يكون الشاعر شاعرا عصريا يجب أن يكون شعره شعرا وأن يكون عصريا، وها أنا أضرب مثلا :

يذكر القراء أن شاعرنا الكبير حافظ ابراهيم وصف القاطرة فى قصيدة له ميمية فى « رعاية الاطفال » فلم يوفق فى هذه القصيدة كما وفق فى كثير من شعره خصوصا فى قصيدته اللامية التي قالها فى نفس الموضوع، تلك القصيدة التى تجلت فيها شاعرية حافظ والتي يقول فيها

وكأن ناحل جسمها فى ثوبها

خلف الخروق يطل من غربال

ووصف الشاعر الفرنسى « الفرد دى فينى » القاطرة فى أول عهدها فى قصيدة « بيت الراعى » فلم يوفق والسبب واحد ، ذلك بأن الاول كان شاعر بؤس ورقة وألم لخلق فى فضاء لم يألفه ، وقبل ان يألفه الشعر ، فسقط ، وكان الثانى شاعرا فيلسوفا تذوب نفسه أسى على المجتمع البشرى الذى أطال التأمل فيه فهبط فجأة من سماوة الفكر العالى التى كان يسبح فيها بخياله وأخذ يتخوض فى ماء وحل

ذلك بأن الشعر العصرى ليس معناه وصف المخترعات العصرية من قاطرات وطيارات وما شاكلها ـ وإن كان

ذلك لا يمنعه من التعرض لها ـ فهذا فى الحقيقة تطفل من الشعر على العلم وطرق أبواب ما أغناه عن الوقوف بها طويلا!

قال البارودى

طبعته فى لوح الفؤاد مخيلتى
بزجاجة العينين فهو مصوَّر
وسرت بجسمى كهرباءة حسنة
فمن العروق به سلوك تخبر
لولا التنفس لاعتلت بى زفرة
فيخالنى طيارة من يبصر

أنظر الى هذه الابيات الثلاثة التى اضطررنا الى ذكرها الان لانها جامعة ، تجد البارودى أشار فى البيت الاول الى آلة التصوير أو « الفتوغرافيا » ، وفى الثانى الى الكهرباء والسلوك ، وفى الثالث الى الطيارة ،

أنظر كيف خلط الشاعر بين الشعر والعلم ، بين الخيال السامى والماديات ، بين ماء السماء الصافى وماء المستنقع الاجن ، فظهر شعره فى تلك الصورة التى يأباها الذوق السليم ...

هذه الابيات ليست من الشعر العصرى فى شىء لانها ليست من الشعر ، وانى أمقت ذكر المخترعات على هذه الصورة كما أمقت الصنعة والتكلف والبديع والجناس وكل ما يحول الشعور عن مجراه الطبيعى فلا يلبث أن يتشتت

ويجف

وليس من الشعر العصرى فى شيء أن يولع بعض شعرائنا المعاصرين ببكاء الاطلال والدمن كما كان يفعل العرب لانه لا أثر للاطلال والدمن فى العصر الحاضر ولا يمكن أن ينم بكاؤها عن شعور صادق

على أن فى ذلك مظهرا من مظاهر التقليد . والتقليد ممقوت لان معناه فقدان شخصية الفرد وشخصية العصر ، وهو دليل ضعف، والحياة قوة

والنفس تمل التقليد لانه عدو الجديد ولكل جديد لذة ، وكلما تعددت المذاهب واختلفت باختلاف العصور كان ذلك دليل نهضة وحياة . والحياة حركة

ومن أراد أن يتحقق من ذلك فليقارن بين مذهب العرب ومذهب المولدين ومذهب الاندلسيين ، أو فليقارن بين مذهب الشعراء الفرنسيين فى القرن السابع عشر Ecole Classique ومذاهبهم العديدة في القرن التاسع عشر ، ثم ليقارن بعد ذلك بين مذهب الشعراء الفرنسيين أو الانجليز في الوقت الحالى وبين مذهب شعرائنا اليوم اذا كان لنا مذهب جديد معين

لا أريد بذلك الحط من مكانة الشعر العصري ولست أنكر مثلا عبقرية شوقى التى تتجلي كالصبح ولكن من

منا لا يذوب أسى كلما رأى شاعرنا قد وقف جزءا كبيرا من شعره على المدح وسلك في ذلك مذهب القدماء

على ان من حسنات شوقى انه هجر البكاء على الطلول والمغاني وبكى على آثار مصر وشاد بذكراها في قصائد عديدة من أجود شعره فاصبح « شاعر الآثار » وكان بذلك مصري النزعة عصريا ، وكان يعبر عن شعور صادق ووطنية عالية ، وكان في الوقت نفسه خير ترجمان للنهضة المصرية الجديثة التى تعمل على احياء مجد السلف

ولكننى لا أقصد الان التكلم عن « عصرية » شوقى أو مطران أو صبرى أو غيرهم وانما أردت أن أضرب مثلا ، وأضيف الى ما تقدم أن الشاعر العصري حقيقة هو الذى يضطر الناقد الى ترتيب قصائده عند الحكم عليها ، لا بحسب الابواب من مدح وفخر وهجاء كما يفعلون ، بل بحسب تاريخها فهذا هو المقياس الصحيح الذي يدلنا على مبلغ ارتباط الشعر بحياة الرجل وعصره

وتلك هي الطريقة التى سنجري عليها في درس البارودي والبحث عن آثار القديم التى تختلط أحيانا بشعره اختلاط الرغام بالذهب في معدنه ، وسنبين كيف تمكن البارودي من نظم بعض قصائد من الشعر النقى الحر كسبائك الذهب المصفى

ولا ريب أن هذا الشاعر سيكون لنا مثلاً كبيراً نثبت به تلك الحقيقة الكبيرة التي جهلها الكثيرون وهي أحسن الشعر أصدقه .

البارودي في صباه

١

صدر من ديوان البارودى جزآن يحتويان على معظم شعره ، وهما مصدران بمقدمة في حياة الرجل لا تنقع غلة سيما اذا تذكرنا ان حياة هذا الشاعر كانت كبيرة مضطربة متنقلة كالموج من شاطىء الى شاطىء مملوءة بالحوادث والعبر التي نظمتها يد المقدار صحيفة في تاريخ مصر الحديث ، وأن حياته وشعره يؤلف بينهما نسب صادق . فمن أراد حقا أن يتمتع بذلك الشعر العذب فليرجع الى الأصل وهو الحياة تلك العناقيد من كرومها المهدلة .

وحسبنا أن نصورهما من عل في لوحة مصغرة - سنتكلم فى هذا الفصل عن صباه حتى يقارب الاربعين فى آخر حكم اسماعيل ، ثم نتكلم عنه في اطوار حياته الاخرى ، ابان الثورة العرابية ، في منفاه وفي مصر حيث بكى واستبكى بدمع من خلائقه الكبر :

نشأ البارودى في بيت مجد مؤثل ، وهو ابن حسن بك حسنى (كان من أمراء المدفعية ثم صار مديرا لدنقله وبربر على عهد المرحوم محمد على باشا) ابن عبد الله بك الجركسى ينتهي نسبه الى المقام السيفى نوروز الاتابكي

أخي برسباي قرا المحمدى

والترك والجركس هم آخر طبقة من الغرباء الذين وفدوا الى مصر واتخذوها وطنا وتوالدوا فيها فاصبحوا « مولدين » وقد روى صاحب الهلال أن البارودى كان شديد الحرص على معرفة نسبه وأنه بذل نحو ٣٠٠٠ جنيه في سبيل البحث عنه في انحاء القطر ومراجعة النصوص وغير ذلك

ولد صاحب الترجمة بسراى باب الخلق لثلاث بقين من رجب سنة ١٢٥٥ هجرية ، وفي سنة ١٢٦٢ توفي والده بناحية دنقله وكان عمره اذ ذاك سبع سنين وفي ذلك يقول لما ناهز العشرين

لا فارس اليوم يحمي السرح بالوادي
طاح الردى بشهاب الحرب والنادي

مات الذي ترهب الاقران صولته
ويتقى بأسه الضرغامة العادى

مضى وخلفنى فى سن سابعة
لا يرهب الخصم ابراقى وارعادى

فان أكن عشت فرداً بين آصرتى
فها أنا اليوم فرد بين أندادى

وهذا الشعر كما تراه متين محكم النسج نظمه فى سن صغيرة ، فما سر هذه القوة التى تجلت قبل الاوان فى عصر

مقفر من الشعر الجيد ؟ أهو فى تربيته القوميـة أم طبعه واستعداده ؟

شرع محمود سامى في سن الثامنة في تلقى المبادىء التعليمية على أساتذة كانت تحضر لديه فى منزله ، ودخل فى سنة ١٢٦٧ ، أي فى سن الثانية عشر ، فى مدارس الحربية وخرج متها برتبة باشجاويش سنة ١٢٧١ فى أوائل تولية سعيد باشا ، وكان عمره اذ ذاك ١٦ سنة . ويقال انه كان يتعاطى صناعة الشعر فى أثناء دراسته

أما تربيته الادبية فاليك ما قاله الشيخ حسين المرصفى في هذا الموضوع فى « الوسيلة الادبية » وكان من أعرف الناس به : « محمود سامى البارودى لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجـد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع بعض من له دراسة وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ وهو بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ... ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتي حفظ الـكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها من خسيسها . ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالامراء »

ولم يكن عصره يساعد على تكوين ملـكة البلاغة

لأن حامل لواء الشعر اذ ذاك هو محمود صفوت الساعاتي الذى أعقب الدرويش ، وقد حدثني الموحوم حفني بك ناصف مرة أن أجود قصيدة نظمت في عهد محمد على هي القصيدة التى مطلعها

يا آل طه عليكم حاجتى حسبت
إن الضعيف على الاجواد محمول

والتى ما زال الى اليوم بعض سكان الريف يحفظونها ، وكان الليثي والنجارى والابياري والنديم ورفاعة وابو النصر وغيرهم ، وهم معاصرو محمود صفوت ، مولعين بالبديع محتذين مثل البهاء زهير وابن خفاجة وغيرهما من المتأخرين الذين ليسوا من حلبة هذا الميدان

أما فيما يتعلق بالوراثة فقد قال البارودي

أنا فى الشعر عريق لم أرثه عن كلاله
كان ابراهيم خالى فيه مشهور المقالة
وسما جدى على يطلب النجم فناله

لانظن ان خال البارودى كان شاعراً يمتاز عن أهل عصره ولكن لعل البارودى وجد فيه مشجعا على قول الشعر كما وجد فى المعالى التى يفخر بها وفى معاهد العز والشباب المخضرة الجناب التي درج فيها

ولكن كل هذا لا يكفي لان يبرز شاعر غض الاهاب

على معاصريه ثم يجرى حبله على غاربه حتى يلحق بفحول المتقدمين قبل أن يطوى برد الشباب .

اذن كان سر قوة هـذا الشاعر فى طبعه . وكانت فى قرازة نفسه عين كامنة ما لبثت أن وجدت منفذاً ضئيلا فتفجرت بالسحر الحلال ولم تنضب ، روى الاستاذ خليل مطران في فصل رائع : « لقـد تسامحت يوما بدالة الود فسألته أية حال من أحوال حياتك كنت فيها أميل الى الشعر وأكثر اشتغالا به فاجابنى . ان خطرات الشعر صحبتنى فى أيامى كلها ولم تفارقني الا فى أقلها »

على ان من يقرأ شعر البارودى يرى ماء الطبع يترقرق فيه ، ولقـد قال هو عن نفسه فى كلمة أفتتح بها ديوانه : « ولقد كنت فى ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة ألهج به لهج الحمام بهديله ، وآنس به انس العديل بعديله ، لا تذرعا الى وجـه أنتويه ، ولا تطلعا الى غـنم أحتويه ، وانما هى أغراض حركتنى واباء جمح بى وغرام سال على قلبي فلم أتمالك ان أهبت فحركت به جرسى ، أو هتفت فسريت به عن نفسى » ثم روى بيتين قالهما فى هذا المعنى :

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت
به عادة الانسان أن يتكلما

فلا يعتمدني بالاساءة غافل
فلا بد لابن الايك أن يترنما

أجل . غنى البارودى بالشعر كما يغنى الطائر من غير صنعة ولا تكلف ، وحركت الاغراض فؤاده فى فجر الحياة فاطـرBنا بنغماته ، حتى جاء آخر العمر وأظلمت الدنيـا فى عينيه بعد فقد الشباب وفقد الديار وضرب الأسى على جميع أوتار فؤاده

ولقـد خص شاعرنا بالذكر غرضين من الاغراض التى حركته فى شبابه فقال « اباء جمح بي وغرام سال على قلبي » أما غرام ذلك الشاعر العفيف النفس فلا ندري من امره شيئا ، على ان شعره فى الغرام قليل ولا أعرف له الا قصيدة فذة واحدة فى هذا الموضوع . وكانت من خير ما غنى به شاعر على غصن الغزل المياد :

هل من فتى ينشد قلبي معى بين خدور العين بالأجرع
كان معى ثم دعاه الهوى فمر بالحى ولم يرجع
فهل اذا ناديته باسمه يفيق من سكرته أو يعي

والقصيدة كلها من أرق الشعر وهي تصافح فى سماء الادب المصرى قصيدة صبرى باشا التي مطلعها

يالواء الحسن احزاب الهوى ايقظوا الفتنة فى ظل اللواء

ويغلب على ظنى أن البارودي قال قصيدته هذه فى آخر حياته لان عليها مسحة الشعر الذى أنضجه الألم ، ولعله هتف بها فى منفاه ، وفى البيتين الاخيرين منها بعض الدلالة .

فهل الى الاشواق من غاية

امهل الى الاوطان من مرجعي

لا تأس ياقلب على ما مضى　　　لا بد للمحنة من مقطع

ومهما كان من الامر فانني اعتقد ان البارودي كانت في نفسه مغالبة بين عاطفتي الحب والاباء فتغلب الاباء وجمح به . ولقد كان الاباء عاملا كبيرا في حياته وفي شعره ، دفعه في الحياة الى سلوك الطريق الوعر المملوء شوكا ليقتطف العز من خلاله ويبلغ به أبعد غاية ، ثم الى التجلد والصبر عند الشدائد . ودفعه في شعره الى الفخر وترك المديح الذي « يتطلع الى غنم » وهو رجل ذو مطامع طموح الى العلياء ، وكأنما نطق الكاظمي بلسانه حين قال

ماسلونا آرام نجد ولكن　　　شغلتنا العلا عن الآرام

واذا دققنا النظر في مصادر هذا الاباء وجدناها ثلاثة : أولها اصل البارودي وحسبه ، ثانيها النعرة العربية التي ورثها الشاعر عن العرب الذين درس شعرهم وأصبح يجاريهم ، ثالثا كبرياء حامل السيف ، سيما أن البارودي كان جنديا كبيرا صعد في درج الترقي في ايام سعيد واسماعيل وخاض الوقائع . وكانت له مواقف في حرب كريد وحرب الروس مع الدولة وصفها وصف « مصور وقائع » .

أما وقد ذكرنا العز الذي خالط إباءه والذي يفوح شعره

برياه فلا يغيب عنا ان البارودى لاتكاد تخلو له قصيدة من ذكر « روضة المقياس » أو « روضة النيل » والجزيرة ، والشجر ، وغناء الاطيار ، وقد وصف حديقة جزيرة كريد وحديقة جزيرة سيلان ، واننا لايخالجنا أقل شك فى ان البارودى كان فى ايام صباه يؤم كثيرا روضة المقياس والجزيرة يوم كانتا تر فلان فى حلل العز أيام اسماعيل ، فانطبعت صورتهما فى فؤاده الحساس ، وصار كلما اوحى اليه فؤاده قول الشعر ظهرت هذه الصورة فى الوان شتى

وبالجملة فان طبيعة البارودى فى شبابه حركته لقول الشعر والتمييز بين اساليب القدماء الذين كان يحفظ من شعرهم كل ما كان جزلا رصينا ، ثم وجدت تلك الطبيعة فى الحياة مايساعد على تغذيتها فى اطوارها المختلفة فخرج شعره فى صباه متينا رقيق الحواشى

ولقد ثبت لنا ان القصائد التى جارى بها القدماء أمثال ابى نواس والشريف الرضى والنابغة الذبيانى وابى فراس والطغرائى ، والتى هى من أجود شعره ، هى من شعر الشباب ولكنا لم نهتد الى هذه النقطة من الديوان المطبوع الذى جنى عليه شارحه . بل من الوسيلة الادبية ، فان الشيخ حسين المرصفى قد اختار هذه القصائد وذكرها فى كتابه ، وهو وان لم يكن قد ذكر تاريخها الا اننا قد عرفنا أن تاريخ

ظهور الطبعة الاولى من كتابه كان سنة ١٢٩٦ (لا ١٢٩٢ كما ذكر خطأ فى اول الكتاب) فتكون جملة القصائد التى نشرت فيه قد نشرت قبل أن يبلغ البارودى أربعين عاما. وسنذكر شيئا من هذه القصائد التى تتهادى كالعرائس فى أبهى حلى، ولكننا نقرر من الآن أن البارودى كان فيها مجاريا لا مقلدا فساقها حضرية بدوية التركيب، ومهما حشد فيها من الفاظ وتشبيهات قديمة فان آثار التقليد سطحية، وليت شعرى متى كان الصانع المقلد يصل بالشعر الى المرتبة العليا التى وصل اليها البارودى ؟

انظر اليه مثلا كيف وصف حرب جزيرة كريد حين خرجوا من طاعة الدولة سنة ١٢٨٢ فى قصيدة (اخذ الكرى بمعاقد الاجفان) والتى يقول فيها

وضعوا السلاح الى الصباح واقبلوا

يتكلمون بألسن النيران

فلقد صور البارودي فى هذه القصيدة موقفا له فى تلك الحرب تصويرا دقيقا كأنه من ريشة مصور، ومما يزيدنا عجبا انه نظمها فى ميعة الصبا اذ كانت سنه وقتئذ ٢٧ عاما.

وقال فى موقف آخر

ولما تداعى القوم واشتبك القنا

ودارت كما تهوى على قطبها الحرب

وزين للناس الفرار من الردى
وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الارض الفضاء كأننا
سقينا بكأس لا يفيق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها
واني صبور ان الم بي الخطب

ولما اعلنت روسيا الدولة العلية بالحرب سنة ١٢٩٤
ذهب مع الجيش الذي أرسلته الحكومة المصرية لمساعدتها
ومما قاله في هذه الحرب

أدور بعيني لا أرى غير أمة
من الروس بالبلقان يخطئها العد
جوائث على هام الجبال لغارة
يطير بها ضوء الصباح اذا يبدو
اذا نحن سرنا صرح الشر باسمه
وصاح القنا بالموت واستقتل الجند

فترى من ذلك أن البارودى قد وصف الحرب عن خبرة
وصفا يتأثر منه القاريء كأن احساسهما مشترك

ومما قاله في بعض القصائد الاخرى التي اشرنا اليها ،
وذاع على كل لسان ، وصفه للخمر في القصيدة التي
يجاري بها أبا نواس :

فطاف بها شمسية لهبيـة لها عند الباب الرجال ثوور

اذا ماشربناها أقمنا مكاننا

وظلت بنا الارض الفضاء تدور

ومنها فى وصف الحمائم:

نواعم لايعـرفن بؤس معيشة

ولا دائرات الدهر كيف تدور

خوارج من ايك دواخـل غيره

زهاهن ظـل سـابغ وغـدير

اذا غازلتها الشمس رفت كأنما

على صفحتيها سندس وحـرير

أرأيت وصفا ادق من هذه الابيات . يشف عن قوة الملاحظة وحسن التخيل ؟ ومنها في الفخر

وأصبحت محسود الجلال كأنني

على كل نفس في الزمان أمير

اذا صلت كف الدهر من غلوائه

وان قلت غصت بالقلوب صدور

ومن قوله أيضا فى الفخر في القصيدى التى يجارى بها الشريف الرضى :

ومن تكن العلياء همة نفسه

فـكل الذى يلقـاه فيهـا محبب

اذا أنا لم أعط المـكارم حقها

فلا عزنى خال ولا ضمنى أب

ومن قوله فى قصيدته التى يجارى بها أبا فراس

وانى امرؤ لولا العوائق اذعنت

لسلطانه البدو المغـيرة والحضر

من النفر الغر الذين سيوفهم

لها فى حواشى كل داجية فجر

اذا استل منهم سيد غرب سيفه

تفزعت الافلاك والتفت الدهر

كل هـذا الشعر قاله البارودى فى صباه ، وكل هـذا الشعر يترنم به أهـل العصر فهو أذن من الشعر العصري الحر الذى يقع من النفس مواقع الماء من ذي الغلة الصادي، وهو كما ترى مشرق الديباجـة عليـه نضرة ونعيم يدل على اقبال الدنيا ، ولـكن لايفتك أن الايام دول وأن أواخر ايام اسماعيل التى كانت في الوقت نفسه أواخر أيام شباب شاعرنا الذي رضع من ثدي عزه وسلطانه قـد تكدرت بعد صفو وأصابها ازعاج بعد أمن.

جاء فى الديوان مانصه :

« قال يذم سـيرة الحـكام ويحرض الناس على طلب العدل في الاحكام وذلك فى عهد اسماعيل باشا خديوي مصر »

جاء في هذه القصيدة.

قامت به من رجال السوء طائفة
أدهي على النفس من بؤس على ثكل

من كل وغـد يكاد الدست يدفعه
بغضاً ويلفظـه الديوان من ملـل

ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
قواعـد الملك حتى ظـل فى خلـل

(ومنها)

فبادروا الامر قبل الفوت وانتزعوا
شكالة الريث فالدنيـا مع العجـل

وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا
لكل منـتزع سهما ومختتـل

حـتى تعود سماء الأمن ضاحيـة
ويرفل العدل فى ضاف من الحلـل

هذه القصيدة فيما أعتقد مبـدأ الشعر السـياسي فى العصر الحـديث وهى صـيحة في وجه الظـلم الصارخ، واستنهاض للهمم، وحث على العمل، وتذكير بمجد دارس، وهى وداع للشباب وبلهنيـة العيش، وايذان بالدخول في حياة قلق واضطراب، وجد بعد لهو

على ان فيها معنى آخر وهو أن الشاعر قد وفق بين الشعر

والعمل ، بين الحلم والحقيقة فكان طائر النهضة الذي غرد في السحر ، وكان ساعد النهضة العامل وان لم توفقه المقادير

وسنرى في الفصول الآتية كيف بدأت تتغير روح البارودي في شعره مع تغير الحوادث التي كان شعره مرآة لها .

٢

صناعته الشعرية

أبنا فى مقال سابق كيف تأتى للبارودي أن يصوغ فى صباه قصائد بذبها المتقدمين وكانت حلية فى جيد العصر ولكن هناك نقطة لانرى بدأ من الاشارة اليها وهى أن شارح ديوان البارودى لم يجن على شعره بشرحه الطويل الغث فحسب ، بل تعدي ذلك الى عدم العناية بنشر الشعر فى صورته الاصلية فسخ بعض القصائد الرائعة التى جارى بها البارودى فحول المتقدمين . وكان من السهل على الشارح أن يتنبه الى هذا الخطأ الذى وقع فيه عفواً لوأنه تفهم شعر البارودى واهتمامه بحسن السبك أو أنه أمعن النظر فى القصائد التى نشرها له صاحب الوسيلة

ومن العجيب حقا أن ينشر المرصفى للبارودى وهو حى فى ريعان الشباب نصا لقصائده أصح بكثير من النص الذى نشر بعد وفاته، على اننا من جهة أخرى قد أسعدنا الحظ بالوقوع على نصين مختلفين لقصائد أو أبيات معدودة لانشك أن الثاني منهما الذى ظهر فى ديوانه هو فى الحقيقة النص الأصلى الذي أصلحه البارودي وصقله بعد اعمال الروية فيه ونقده نقد الصيرفى الحاذق

ومن المقارنة بين هذين النصين يتبين لنا بعض جمال هذه الصنعة الشعرية وسرها ، ولقد صدق الاستاذ مصطفى صادق الرافعي في قوله في المقتطف سنة ١٩٠٥ « لم يكن شاعرنا كامل التصرف في فنون المعانى وان كان أشعر من جميع معاصريه بلا مراء غير انه أتم ذلك النقص بما أتقن من جمال الصنعة وبديع الرواء ، أما نمط البارودى في النظم فهو غاية مادارت له الألسنة عذوبة تكاد ترشف ، وجزالة تلعب بالنفس وسلاسة يستريح فى ظلها القلب . . .

وكان يقدم أبا تمام على المتنبي لأن شعر أبي تمام أجزل وصنعته أوضح وأتم » .

جاء في القصيدة التي يجارى بها أبا فراس

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم

ملول من الايام شيمته الغدر

وقد روى صاحب الوسيلة البيت على الصورة الآتية :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم ... أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر

فانظر الى الفرق بين الصياغتين وتأمل كيف كان البيت في أول الأمر كالطائر الذي كسر أحد جناحيه فتعسر عليه النهوض حتى جاء الشاعر وبدل الشطر الثانى بشطر آخر يتلاءم مع الاول معنى ومبنى ، فان قوله « ملول من الايام » بعد « ثم بدد شملهم » من أضعف التراكيب وأخسها

بخلاف « أخو فتكات بالكرام » فان هذا التركيب جمع بين الجزالة والرقة اللتين بلغتا منتهاهما في آخر البيت حين فسر شاعرنا الكناية بقوله : « اسمه الدهر » .

أضف إلى ذلك أن في الشطر الاخير يتجلي حزن الشاعر على أولئك « النفر الغر » الذين بدد الزمان شملهم وهذا أتم للمعنى وأوفى وأكثر اتصالا بما جاء بعد ذلك !

فلم يبق منهم غير آثار نعمة
تضوع برياها الاحاديث والذكر
وقد تنطق الآثار وهي صوامت
ويثنى برياه على الوابل الزهر

ولعل أكبر قصيدة بدلت معالمها وشوهت هي القصيدة التي يجارى بها أبا نواس فان الفرق بين الروايتين كبير جدا فنحث المتأدبين على الموازنة بينهما لما في ذلك من فائدة ، واننا لانشك أن رواية الوسيلة أصح وأبلغ من رواية الديوان ولا نأسف الا على شطر واحد ذكر في الثانية وسقط من الأولى مع البيت كله وهو

ونبهنا وقع الندى في خميلة
لها من نجوم الاقحوان ثغور

فان الشطر الاول في غاية من الحسن والانسجام وهو كما قال صديقي الكاشف حين أنشدته اياه « هذا شعر »

وهو ظرف من الجوهر الرقيق يشف عن ذلك النفس العالى ، وفيه مايسميه الافرنج بالنغم التقليدى harmonie imitative وهو دقة التعبير عن المعانى بتراكيب وألفاظ وأوزان تجد لها نغما خاصا يحكى تلك المعانى ويدل عليها . اقرأ ثانية الشطر الذى سبق ذكره :

ونبهنا . وقع الندى . فى خميلة

تر ان الوقوف بعد لفظى « نبهنا » و«الندى» يجعلك تحس وقع الندى الذى يهبط على الخميلة من عل . ومن الابيات التى بدلت فى هذه القصيدة قول البارودي

عقدنا جناحى ليلنا بنهارنا   وطرنا مع اللذات حيث تطير

فقد جاء في الديوان

عقلنا به ماندمن كل صبوة   وطرنا مع اللذات حيث تطير

فالشطر الذى رواه المرصفى كما ترى ضعيف متكلف في حين أن الشطر رواية الديوان من أجود التراكيب وأجملها ، ومعنى البيت أن الشاعر كان يتمتع بليل جمع فنون اللهو ، وهذا دليل على السرور الكامل الذى ينسى الانسان مر الليالى وكر الساعات حتى ينبهه وقع الندى أو هاتف بالسحر وهو لاه منعم في لذائذ العيش ، ومما يزيد من ملاحة ذلك التصور المقابلة التي بين الشطرين فان الشاعر في الشطر الاول ذكر انه « يعقل » ماند من كل صبوة »

ووصف نفسه بالطائر الحر الذي يطير في فضاء اللذات حيث تطير ، فأنت ترى من جمال المقابلة بين الضدين ماترقص له النفس طربا

وجاء في هذه القصيدة وصف الحمائم رواية الديوان:

اذا ضاحكتها الشمس رفت كأنما

على صفحتيها سندس وحرير

فقد ورد في الوسيلة «غازلتها» بدلا من «ضاحكتها» والاولى في هذا المقام ادق وأحلى، وهي كلمة بكر جاء بها وحي الشعر أما كلمة المضاحكة فهي عامة شائعة خالية من الصنعة الشعرية التي امتاز بها البارودى

ولقد كان شاعرنا يفتش عن الالفاظ الشعرية ، وقد تعدل الكلمة المليحة بيتا بل قصيدة بل ديوانا . مثل ذلك كلمة « حواشي » في هذا البيت :

من النفر الغر الذين سيوفهم   لها في حواشي كل داجية فجر

ولعل البارودى أغار على الشريف الرضي الذى قال .

نهار بلألاء السيوف مفضض

وجو بحمراء الانابيب مذهب

ترى اليوم محمر الحواشي كأنما   على الجو غرب من دم يتصبب

لم تخرج لفظة الحواشي في بيت الشريف عن كونها لفظة جيدة من حيث اللغة الشعرية ولكن معناها ضيق

محدود . في حين أنها في بيت البارودى جيدة من حيث الصنعه الشعرية العالية ومعناها واسع غير محدود وكلما تأملت فيها حملتك على جناحيها في فضاء الفكر والخيال

وقد أغار البارودى سهوا على شطر كامل لاعرابى كان سائحا فبلغه ان امرأته تزوجت فقال من أبيات

أتاني بظهر الغيب أن قد تزوجت
فظلت بي الارض الفضاء تدور

ووصف شاعرنا الخمر فقال :

اذا ما شربناها أقمنا مكاننا
وظلت بنا الارض الفضاء تدور

ولكن البارودى أحسن الاخـذ وصار أحق بالمعنى من صاحبه .

هذه أمثلة علنا نكون اهتدينا بها الى بعض أسرار تلك الصناعة، وفى اعتقادي ان البارودي جمع فى اسلوبه بين الرقة والمتانة . والدقة والجزالة . والبداوة والحضارة . فجاء شعره مصقول الديباجة كالمرمر المسنون يمت بنسب الى البحترى . وكلاهما لا يشق له غبار

البارودى فى كهولته

١

الثورة العرابية

انتقل البارودي من صباه الى كهولته تحت لواء الثورة
حتى اسلمته الى منفاه وهجع هجوع الليث بعد أن كانت
له على اعدائه دولة وصولة

ولسنا نريد اليوم ان نفصل حوادث الثورة العرابية
وأسبابها ونتائجها فهذا بحث تاريخى مستقل نرجئه الى
حين ، ونكتفى الآن بقول كلمة اجمالية عن الثورة وشرح
الدور الذى لعبه البارودى فيها

اجمع اكثر المؤرخين على القول بان الثورة العرابية
كانت ثورة وطنية مصرية ترجع أسبابها الى الظلم الذى
اخنى على البلاد في أيام اسماعيل والى تدخل انجلترا وفرنسا
في فروع الادارة المصرية تمهيداً للاحتلال الثنائي الذي تفردت
به انجلترا فيما بعد تحت ستار الثورة التى كانت تعمل في
الحقيقة على ازالة أسبابه واجتثاث أصوله

وقد بدأ احرار المصريين في أواخر حكم اسماعيل واوائل
حكم توفيق يطلبون صراحة العدل والدستور لخلاص البلاد

مما هي فيه ، وانضم البارودى من أول الامر الى زعماء الحركة وكان من مشجعيها سرا . روي المرحوم عرابي باشا في أوراق لم تنشر بعد أنه في سنة ١٨٧٩ على أثر حادثة المالية التى دبرها اسماعيل واراد أن يلصق تبعتها بمحمد بك النادي وعلى الروبي واحمد عرابي دعاهم رئيس التشريفات عبد القادر باشا حلمي فتفاهموا معه ثم دعاهم محمود باشا البارودي وكان وقتئذ مأمور الضبطية فصارحوه القول . وهنا قال عرابى بالنص عن محمود سامى : « وآنست فيه تأففا من الظلم وميلا الى العدل والدستور »

أجل ، كانت هـذه النفس الابية تكره الظلم وتأبي الصبر على مس الهوان . ولقد أشرنا في مقال سابق الى القصيدة التي شكا فيها ظلم الحكام . ولما صعد الامير محمد توفيق الى العرش هنأه بقصيدة قال فيها :

أمران ما اجتمعا لقائد أمة الا جني بهما ثمار السؤدد

« جمع » يكون الامر فيما بينهم

شورى و« جند » للعدو بمرصد

أراد « بالجمع » مجلس النواب و« بالجند » الجيش — وهذا واضح — فانظر الي شجاعة الشاعر واخلاصه لوطنه كيف دفعاه في ذلك الزمن غير المأمون الى المجاهرة بتلك الحقيقة الكبري وسط التهنئة والمديح ، والبارودي هو خير

من لخص أغراض العرابيين في بيت من الشعر ، وهل هناك دواء أنجع من مجلس يحكم البلاد وجيش يحميها؟ وهل هناك وسيلتان اخريان لتحقيق الثورة السلمية الاصلاحية المنظمة التى كانت البلاد بحاجة اليها ؟

وقد عين الخديو توفيق في أوائل حكمه محمود سامى وزيرا للاوقاف المصرية فسعي جهده في اصلاحها ويقال انه كان في هذا الوقت يشجع الحزب الوطني سرا مع ان القوى العاملة لهذا الحزب كانت فى الجيش حيث استحكم العداء بين المصريين والعنصر التركي الشركسى الذى ينتمي اليه البارودى . وهذا يدل علي حب العدل الذي بنى عليه سيما وانه من عائلة قديمة فى الديار المصرية

ولما حدثت المظاهرة العسكرية الاولى ضد عثمان رفقى الشركسى ناظر الجهادية وطلب عرابي من الخديو توفيق عزله أجابه الخديو الي طلبه وأحال عهدة هذه النظارة الى محمود سامى الذي أصبح ناظر الجهادية والاوقاف معاً

روى محمود باشا فهمى المهندس فى كتاب البحر الزاخر أن عرابى وعلى فهمى وعبد العال « اعتبروا اجابة طلبهم مكيدة بهم من الحكومة لتسكين جأشهم ثم تحتال عليهم وتغتالهم وما كانوا يعتقدون فيما يعظهم به محمود سامى من الاقوال وتمهيد الاحوال واضطرب حالهم وشرعوا فى عقد

مجالس سرية واحتفالات وجمعيات ليلية »

أعتقد ان محمود فهمي لم يقل فى هذا الوطن الا حقا.

ويجب علينا من الآن أن نبين الصفة البارزة فى خلق البارودى وهى الاعتدال ، وان كان المعتدل قد يتطرف أو يتهور فى بعض ازمان الثورة . وأريد بالاعتدال هذا الخلق الهادىء الذي يجمع بين الرزانة والروية والحنكة . ولقد جمع البارودي بين الاعتدال والذكاء ، وكان أنبه العرابيين فاشترك فى الحركة ولم يبزه حلمه . ولم يلعب فيها دور شاعر وانما قال فيها الشعر منفرداً قول باك على فنن في غسق الدجى بعد ان غرد فى فجر النهضة تغريدة أو تغريدتين .
ولم يلعب دور زعيم يخطب فى الجماهير، وانما كان رجل وزارة وسياسة يرقب الحوادث من كثب ويعمل على سياستها حتي اذا رآها جمحت بالبلاد مولية انزوي في ضيعته وكان أقلهم تبعة

وقد اجتهد البارودي فى اصلاح « الجهادية » المختلة فطالب الى رئيس الوزارة رياض باشا زيادة مرتبات الضباط والعساكر وتعديل النظامات والقوانين العسكرية . وقد وقع الخديو توفيق على هذا الطلب فى ١٢ ابريل سنة ١٨٨١ ففرح الناس وأقام محمود سامي احتفالا دعا اليه النظار والمفتشين وكان يوما عظيما خطب فيه رياض ومحمود سامى

واحمد عرابى وأثنوا على الخديوى

وفى ٢٥ يوليه من هذه السنة بينما كان الخديوى مصيفا فى الاسكندرية صدمت عربة أحد التجار جنديا فقتل لساعته فحمله رفقاؤه الى سراى رأس التين وطلبوا الى الخديوى النظر في أمره فهاجه ذلك وأمر بعقد مجلس حربى حكم عليهم بالاشغال الشاقة أو بالنفى الى السودان فشكا عبد العال حلمي أميرالاى السودانية من قسوة الحكم وعرض محمود سامي تلك الشكوي على الخديو فشق ذلك عليه واعتقد أن محمود سامى كان يعمل باتفاق مع العرابيين فدعا فى الحال النظار من القاهرة الى الاسكندرية وقدم البارودى استعفاءه وعين مكانه داود يكن ابن عم الخديوى

والراجح أن الذي دفع محمود سامى الى عرض هذه الشكوى هو اعتقاده عدالتها ولكن يظهر أن ذوي الاغراض القوا من الدسائس فى حقه عند الخديو ، وقد أشار الى ذلك بقوله :

نقموا على حميتي فتألبوا
حزبا على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فاما صادفوا
سمعا يميل الى الملام توسعوا
لاعيب فى سوي حمية ماجد
والسيف يغلبه المضاء فيقطع

ويقال أن هذا مبدأ العداوة بين الخديو ومحمود سامى ومبدأ التحالف بين عرابى ومحمود سامى

ثم عاد النظار الى القاهرة وانتظمت الامور فى الظاهر، وعاد اليها الخديوى فى شهر سبتمبر وسرعان ما أصدر داود يكن أمرا الى آلاى القلعة بالتوجه الي الاسكندرية وآلاى الاسكندرية بالحضور الى العاصمة فتوجس عرابى خيفة وفهم ان المقصود تفريق كلمتهم هو وأعوانه . روي محمود فهمى بالنص : « لما استعفي محمود سامى من نظارة الجهادية وتوجه الى منزله فى القاهرة توجه اليه أحمد عرابى سرا فى الليل وتعاهد معه على مساعدته ومعاضدته ، هذا قول عرابى لى والا فانا ما كنت أعرف هذا ، ولما استوثق عرابي من معاضدة محمود سامى له ، عاد الى منزله وتوجه فى صباح ثانى يوم الى العباسية وأتى اليه طلبه عصمت يبث له ما وقع فيه فخاطب فى الحال عرابى الالايات فى كونهم يستعدون للحضور فى ميدان عابدين ».

هذه الرواية من الاهمية بمكان لان هذه الفترة هى أول عصر الثورة ولا بد أن يكون عرابى قد استوثق أولا من تأييد محمود سامى وبعض كبار الوطنيين له قبل كتابته الي الخديوى والى نظارة الجهادية يخبرهم « ان الجيش سيحضر الى سراى عابدين بخصوص طلبات عادلة تتعلق باصلاح

البلاد » فان هـذه الطلبات أصبحت قومية لا محدودة كما كان الامر من قبل ، لذلك لقيت تأييدا من الشعب وبدأت الثورة التي ترمي ألى الاصلاح العام

وقد اجتمعت الآلات فى عابدين ـ كما هو معلوم ـ في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وطلب عرابى باسم الجيش الذى هو قوة الامة التنفيذية « اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش » فتردد الخديوى ثم عين شريفا رئيس الوزارة مكان رياض الذى كان مكروها ، ولم يقبل شريف الا بعد أن تعهد له رؤساء الحزب العسكري باطاعة أوامره وقدم له عمد البلاد ضمانة، ودعى محمود سامي لتقلد وزارة الجهادية فاجاب « بانه عقد النية على أن لا يتقلد خدمة من خدمات الحكومة مادام لرجال العسكرية سلطان يعلو سلطان القانون » ولكنه قبل بعد الحاح

وقد اطلعنا على أوراق للمرحوم الشيخ محمـد عبده يعجب فيها من خطة شريف «الذى كان من مدبرى الحركة» ولا شك أن القارىء يعجب أيضا من خطة محمود سامي المتناقضة فى الظاهر ، وأغلب ظنى أن هـذين الوزيرين ، سيما محمود سامى، هما من المعتدلين الذين يعملون لمصلحة بلادهم ولكنهم يخشون دائما أن تغل يدهم سكرة العسكر أو ان تخرج الثورة من دائرتها السلمية القانونية في ظروف دقيقة للغاية

فيجد الخصم وسيلة للقضاء على نجاحها المبدئي . سيما وأن المطالب الاساسية كانت أجيبت أو كادت ، وباستغلالها فى الدائرة القانونية يمكن الاحتيال والوصول الى أبعد غاية . وقد كان « مانان » بطل البندقية وحاميها فى الثورة الايطالية من أكبر أنصار هذه الفكرة .

وهذا هو السبب الذى من أجله ألح شريف ومحمود سامى على عرابى بالسفر بآلايه الي رأس الوادى فى مديرية الشرقية وعلي عبد العال حلمى الى دمياط . ومن حسنات عرابى أنه أبى ان ينتقل قبل أن يصدر أمر بتشكيل مجلس النواب. وكان الاحتفال بتوديعه فاتحة المظاهرات والاتصال بين عرابى والجمهور ، واشتراك الجمهور في الثورة اشتراكا فعليا .

ولكن عرابى بعد استقراره فى رأس الوادى شرع يجول في انحاء المديرية ويخطب فيها فدعاه محمود سامى وجعله وكيلا لنظارة الجهادية .

وفى ٢٢ سبتمبر صدق الخديوى على القوانين العسكرية وفى ٤ اكتوبر اعتمد لائحة مجلس النواب الذى تم انتخاب أعضائه فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وكان مؤلفا من اثنين وثمانين عضوا تحت رياسة سلطان باشا ، وكان من الممكن أن تسير الامور بانتظام لو لم يكن أعداؤنا بمرصد يدسون

بين هذا وذاك ، ويحرضون هذا على ذاك ، ويحركون المطامع والشهوات حتى وجدوا بفضل داء الشخصيات الذى ينغل في جسم الامة الى اليوم فرجة توصلوا بها الى كبد البلاد فطعنوها فى الصميم

وما صدق الخديوى توفيق من مبدأ الحركة الى منتهاها على جميع الاجراءات والمطالب الا على غير رغبته وكان للسراي حزب ، وكان العرابيون منقسمين ـ ولا أقصد هنا ذم فريق ـ الى متطرفين أمثال عرابى وطلبه وعبد العال وعبد الله نديم ، ومعتدلين أمثال عبد السلام المويلحى ومحمود سامى ، رغما من جميع الظواهر ، وغيرهما . لذلك كان الخصم آمنا مطمئنا لم يزعجه انعقاد مجلس النواب لعلمه ان فرص الخلاف كثيرة وأنه سيعرف كيف يستفيد منها ويحول بين المصريين وبين التمتع بمجلس النواب الذى هو عمود الثورة السلمية المنظمة

وفى ٢ يناير سنة ١٨٨٢ قدم شريف باشا الى مجلس النواب اللائحة الاساسية الجديدة التى أعدها له ؛ وبعد فحصها وقع خلاف بين النواب والنظار بشأن المواد المتعلقة بالميزانية وكان سلطان باشا وبعض النواب يؤيدون شريف فتداخل وكيلا فرنسا وانجلترا معارضين فى حق مجلس النواب فى تقرير الميزانية فكان تداخلهما مثيرا للشكوك

داعيا لاستحكام الخلاف ، وانتهى الامر باستعفاء شريف باشا وتأليف وزارة برياسة محمود سامى البارودى ، وجعل احمدعرابى وزيراللجهادية فسر الحزب الوطنى بهذا الانتصار ووردت التهنئات من كل صوب ، واعتبرت هذه أول وزراة وطنية مصرية ينتمى رئيسها الى حزب الثورة

وقد ملك محمو سامى وقتئذ أعناق المطالب وكان مملكا على عرش القلوب ، وكان في بيته كوكب سعد ولكن الدهر مالبث ان أطلع في جوانبه للنحس خمسا . على ان شاعرنا وهو البصير الهادىء الذكاء لم يكن ممن يلهيه سكر الانتصار عن الحقائق الراهنة . واليك الدليل :

فى يوم الاربعاء ٨ فبراير ذهب محمود سامى الى مجلس النواب ومعه اللائحة بعد أن صدق عليها مجلس النظار فقوبل بالشكر والتبجيل ، ثم وقف محمود سامي خطيبا فى المجلس فقال خطبة هامة عثرنا عليها فى مذكرات المرحوم عرابى باشا :

« أيها السادة النواب إننى سعيد الطالع بحضورى بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الأساسى ....

« الا أننى أعلم كما تعلمون أن مجرد وضع القانون على أصول الحرية وقواعد العدالة لايكفى فى وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم بل لا بدأن ينضم الى ذلك

خلوص النية من كل واحد منكم فى المحافظة على حدود هذا (القانون)ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الاعمال والافكار منحصرة فى دوائرها . وقد قال عقلاء السياسيين ان الوصول الى هذا النوع من الكمال أعنى حصر جزئيات الاعمال وكلياتها (فى دائرة القانون) انما ينال بعد العناء وطول التجارب ولكنى لا أعد هذا صعبا عليكم

« وفى أملى انكم ستحققون مايظن أحباء البلاد فيكم عند ماتبتدئون فى الاعمال المهمة التى تهيأتم الآن لمباشرتها بأن تستعملوا صادق النظر للوقوف على مافيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى الهمم حتى لا يضيع الزمن الطويل فى الحصول على فائدة قليلة وهذا لا يكون الا بتخليص الافكار وتمحيص الطوايا من شوائب النزعات الشخصية بأن نجعل الأعمال وقفا على المصالح العمومية التى نفعها فى الحقيقة عائد عليكم وعلى أبنائكم

« ان التفات النظر الى الخصوصيات يبعث فى القلوب محاسدات ومناظرات تحمل على الخلاف الدائم وانكم تعلمون أن الذين رقوا الى ذروة العز وأوج الشرف لم ينالوا ذلك الا باخلاصهم فى طلب النفع العام فاعترف العالم بفضلهم وأجلتهم القلوب وأحلتهم أعلى المنازل فثبتوا فى

مكانهم ماداموا بحلية الاخلاص .

ثم ختم قائلا : « وآخر ما نتواصي به أن لا نجعل للتعصب المشربي دخلا فى الاعمال الوطنية التى كلفتكم البلاد أن تقوموا بادائها وان تكون الوطنية الحقيقية هى الباعث القوى على كل فكر والغاية القصوى من كل قول وعمل » .

هذه خطبة أخلق بها أن تكتب بماء الذهب فهى صيحة اخلاص فى ساعة الخطر تشف عن جوى باطن وداء دخيل .

وسرعان ماسعت انجلترا وفرنسا فى خلق الارتباكات وتعقيد الأمور للقضاء على الثورة والاستيلاء على مصر وقد بلغ عرابى أن طائفة من ضباط الشركس يعملون على الكيد له فعقد مجلسا حربيا وقرر نفيهم الى الاقطار السودانية فعارض الخديوى وتصلب عرابى وكان هذا مبدأ دخول الثورة السلمية فى طريق العنف والاضطراب والارتباك التى لعبت انجلترا تحت ستارها دورا كبيرا اختتمته بمأساة ضرب الاسكندرية ، فان انجلترا وسعت الخلاف بين الخديوى والعرابيين فدعا الخديوى قنصل انجلترا وفرنسا وقال لهما ان حياه الاوربيين على خطر فانزعج القنصلان وذهبا الى رئيس الوزارة محمود سامى وناظر الحربية أحمد عرابى فأكدا لهما أن لا خوف من ذلك

فى هذه الساعة انفلت « عيار » الثورة وجمحت

الحوادث عجلى ، وكثرت المجالس الليلية والاجتماعات وظن الناس انظنون . وبينما كان بعضهم يعمل على رقع الخرق قبل أن يتسع وردت أنباء مجيء الاساطيل الى المياه المصرية ، وارسال الدولتين بلاغا ثنائيا الى الخديوي تقولان فيه « انهما موطدانه ومعضدانه ومثبتانه على الاريكة الخديوية » فوقع هذا البلاغ فى القاهرة ، كما يقول السير مورلى ، كالقنبله ، ثم عقباه ببلاغ اخر ، بالاتحاد مع سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، تطلبان فيه اسقاط الوزارة واخرج عرابى من القطر المصرى فلم تقبله الوزارة وقبله الخديوى الذى كان جل اعتماده على انجلترا ، وبناء عليه استعفت الوزارة، وكان ذلك فى ٢٦ ماو سنة ١٨٨٢

ويظهر أن محمود سامى أحس وقتئذ الخطر الذى يهدد البلاد وعجزه عن تقويم الامور فعاد الي ضيعته وبقى فيها حتى دعاه عرابى الى قيادة فرقة الصالحيـة فى الحرب التى أرغمت انجلترا البلاد عليها

ولا ريب أن البارودى رجع الى مزارعه مترع القلب بالاسى . فلما رأى خلاء ومنظرا هتف بالشعر ليسرى عن نفسه . ولعله نظم فى هـذه الفترة القصيـدة التى نقتطف منها مايأتى :

كنا نوذ انقلابا نستريح به حتى اذا تم ساءتنا مصائره

فالقلب مضطرب فيما يحاوله والعقل مختبل مما يحاذره
ان دام هذا أضاع الرشد كافله فيما أرى وأطاع الغي زاجره
تنكرت مصر بعد العرف واضطربت
قواعد الملك حتى ريع طائره
فاهمل الارض جرى الظلم حارثها
واسترجع المال خوف العدم تاجره
واستحكم الهول حتي مايبيت فتي
في جوشن الليل الا وهو ساهره
اني أرى انفسا ضاقت بما حملت
وسوف يشهر حد السيف شاهره
شهران او بعض شهر ان هي احتدمت
وفي الجديدين ماتغني فواقره
فان أصبت فعن رأى ملكت به
علم الغيوب ورأى المرء ناظره

كان الرومان يسمون الشاعر Vates وهو الذى يملك بالرأى علم الغيوب . وقد يتفق ذلك كثيرا للشعراء لما امتازوا به من فطنة والهام . وهذا ماحصل للبارودى فانه كان ينصح مواطينه بالعمل على اجتناب الحرب وان كان يعلم علم اليقين ان البلاد مدفوعة اليها طوعا أو كرها وانه لاينفع الحذر . وقد أجاد البارودى في البيت الثاني تصوير هذه الحالة النفسية

كما أجاد تصوير نفسيته حين جاءه وهو فى سيلان خبر العفو عنه فقال :

أحس فى قلبي ديب المنى والمح الشبهة فى خاطرى

وهذان البيتان من أدق الشعر وهما خير ماء تحدر من غمام واحد

ثم انظر من أي بحر يغترف حين يقول بعد انتهاء الحرب — وان كان الديوان خلوا من أى اشارة الى موضوع الابيات :

نصحت فكذبتم فلما أتى الردى

عمدتم لتصديقي وقد قضى الامر

فلم يبق فى ايديكم غير حسرة ولم يبق مني غير ماعافه الصدر

فجاء الذى كنتم تخافون شره وزال الذي لم يبق من بعده شعر

هذا شعر ينضح بمرارة العيش التى يقاسيها مغترب في منفاه بعد أن قضى الامر وضاعت الديار . ومن كياسة البارودى وصدق وطنيته انه لم يطعن الثورة فى ظهرها بعد فشلها . كما فعل الكثيرون . ولم يأس على المال ومتاع الدنيا وظل كريم العنصر :

لم اقترف زلة تقضى على بما

أصبحت فيه فماذا الويل والحرب

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى

ذنب ادان به ظلما واغترب

فلا يظن بي الحساد مندمة فانني صابر فى الله محتسب

أثريت مجداً فلم اعبأ بما سلبت

أيدى الحوادث مني فهو مكتسب

لايخفض البؤس نفسا وهي عالية

ولا يشيد بذكر الخامل النشب

الست تحس كأن هذا الشعر من قول المتنبي أو أبي العلاء وان روح الشاعر «تطورت» فى كهولته، ثم انظر الى الحكمة فى شعر صباه وقد كانت بنت الذكاء والتحصيل . وانظر اليها الآن وقد شيب الدهر فوديها واصبحت بنت التجارب والالم

فانت ترى من كل ماتقدم ان البارودى لعب فى الثورة العرابية دوراً كبيراً تصحبه الحكمة والاعتدال فى معظم أطوارها وترك حبلها على غاربها حين أحس ريحا عاتية تسوق البلاد الى الحرب . ثم رجع الي الصف فلم توفقه المقادير . وذهب الى منفاه الذى جمع الاسى واقتدح زناد فكره . فقال شعرا كثيراً أعاد به الى البلاد عصر الادب الازهر .

٢

المنفى

أرأيت مخضرا من الروض كان مسرحا للشباب ترف عليه الغضارة والنضارة ، وكان ساكنوه يقامرون الدهر فوق ذلك البساط الاخضر ،والدهر مبتسم يلهيهم بعاجل الربح عن آجل الخسران، حتى قمرهم فجاءة ودالت دولة السرور وهبت النكباء وغاض ماء النعيم، وطوى البساط وجفت الاقداح وخرج كل منهم خاشعا وسليبا

كان محمود سامى من أولئك النفر الذين تبسطوا على لذات الشباب زمانا بين الجزيرة والروضة وذاقوا حلاوة المجد وهم في ضحوة العمر ، ثم دفعهم الطماح فقدموا الراحة والرفه والثروة والجاه مهرا للحرية والعلياء

أجل ، فقد محمود سامي كل شيء الا الشرف والكبرياء ، ومكث فى منفاه سبعة عشر عاما كاملة أفنى فيها كهولته بين تباريح وعبرات ولوعة وحنين

نكب البارودى فى الثورة حين ختله الدهر والقى ورقة رابحة اجتاحت المال والبلاد فكانت كهولته كلها ليلة داجية وكان كبلبل الظلماء يردف تغريدا بتغريد ، ويقول شعرا هو أنس المحزون، وعزاء الثكالى، وسلوة العاشق. شعرا

يلهم الصبر على المكاره. والجلد على الشدائد، والامل فى الله.
وهو القائل:

فانا كن جردت من ثروتى ففضل ربى حلية العاطل

ولقد كانت الايام التى ختمت بها الثورة وسبقت منفاه مأساة تتصدع منها كبدالحر وتذهب النفس حسرات. تلك أيام مملوءة بالذكريات المحزنات التى تهيج فى سماء الفكر كانها أغربة سحم مستنفرة

وحسبك ان تذكر أن بعض المصريين رحبوا جهلا أو انخداعا «بدخول الفاتحين» وان حب الانتقام دفع بعض الكبراء الى ارسال الخدم الشركس وغيرهم ليهينوا ويزعجوا زعماء الثورة فى سجونهم صباح مساء والى تمنى الموت لهم. ولعل البارودي أشار الى ذلك فى قوله وهو بمنفاه . :

وما أنا بالمغلوب دون مرامه ولكنه قد يخذل المرء جهده

ابى الدهر الا أن يسود وضيعه

ويملك أعناق المطالب وغده

تداعت لدرك الثأر فينا ثعاله

ونامت على طول الوتيرة أسده

وقد كان حكم على رؤساء الثورة بالاعدام حتى قيض الله لهم بلنت الذى أرسل برودلي ونابيير للدفاع عنهم فاستبدل الحكم في ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بالنفى المؤبد ،

ولا اخاله الا مشيرا الى ذلك بهذين البيتين المنفردين اللذين يقومان مقام لوحة مصورة :

الا قل لقوم شامتين تربصوا · تهزم شر بالمنية كارث
أرى ستر خطب قد ترفع وانبرت · تلوح لهم منه وجوه الحوادث

وفى ٢٧ ديسمبر رحل قاصدا سيلان ، ومعه صحبه، ودخلوا ميناءها كولومبو فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ ، وهناك أقاموا، وقد بلغ من العمر خمسة وأربعين عاما ، وقد وصف شاعرنا الفراق بقصيدة « أحلى من تعريسة الفجر وأعذب من الماء الزلال » ، قال :

محا البين ما ابقت عيون المهامنى · فشبت ولم اقض اللبانة من سنى
عناء وياس واشتياق وغربة · ألا شد ما ألقاه فى الدهر من غبن
فان اك فارقت الديار فلى بها · فؤاد اضلته عيون المهاعنى
بعثت به يوم النوى إثر لحظة · فاوقعه المقدار فى شرك الحسن
فهل من فتى فى الدهر يجمع بيننا · فليس كلانا عن أخيه بمستغن

ولما وقفنا للوداع واسبلت مدامعنا فوق الترائب كالمزن

أهبت بصبرى ان يعود فعزني

وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن

وما هى الا خطرة ثم أقلعت

بناعن شطوط الحى اجنحة السفن

فكم مهجة من زفرة الوجد فى لظى

وكم مقلة من غزرة الدمع فى دجن

وما كنت جربت النوى قبل هذه

فلما دهتنى كدت اقضى من الحزن

ولكننى راجعت حلمي وردنى

الى الحزم رأى لا يحوم على افن

ولولا بنيات وشيب عواطل

لما قرعت نفسى على فائت سني

هذا شعر يمتزج بالروح رقة، وعندى ان أجود قصائد البارودى ثلاث ، هذه القصيدة التى أخاق بها ان تسمي قصيدة «محا البين» كما يقولون «قفا نبك» و «خفف الوطء» وقصيدته الغزلية « هل من فتي ينشدقلبي معى»، وقصيدته التى قالها فى الجزيرة بعد عودته من منفاه :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع

هيهات قد ذهب المتبوع والتبع

ومن العجيب انك لا تجد فى هذه القصائد معني جديدا ولا أثرا من آثار المبالغة والغلو ،وانما هي عرائس مجلوة وسمها الله بميسم الجمال فغنيت عن التزويق الكاذب. انما هي تصوير حالات نفسية ووجدان وعواطف قد يخيل اليك لأول وهلة انه خال من الدقة وانه من «فرشة» المصور لا من ريشته . ولكن حسبت من القلادة ما أحاط بالعنق فان هذا الشعر الحي من التصوير الصادق الذي يلعب بالنفس ويدخل على القلب بلا استئذان

كلنا يعرف قول المرحوم اسماعيل باشا صبري في الفراق :

هل عند ذاك السرب أنا بعده ‌ ‌ ‌ في الحي من آماقنا نتدفق

انى أطرب بصفتي ناقدا لهذا البيت لأن فيه معنى جديدا، وهو من الغلو المستعذب ، ولكنني بصفتي متذوقا لا أحبه لأنه لا يحرك عاطفتي ولانه يخاطب العقل قبل القلب .

ولقد كان فراق البارودى مظلما وكان منفاه مظلما اذ نعى اليه زوجه وأصدقاؤه واحدا بعد واحد ورأى الشقاق دب بين رؤساء الثورة في المنفى فغادرهم عام ١٨٩٠ الى مدينة كندي في جزيرة سرنديب (سيلان) وكأن هذه الظلمة وقفت في عينيه هناك وتجمدت فانقلب حسير

الطرف فى أواخر سنى منفاه ثم عاد الى مصر ففقد ابنتيه ، فيالها ظلمة أخذت تنزل فى عينيه شيئا فشيئا من أول كهولته نزول الليل فى الهوة العميقة حتى اتصلت بظلام القبر

وقد ماتت حليلته سنة ١٣٠٢هـ أوسنة ١٨٨٥م ورثاها بقصيدة من أجود شعره جاء فيها .

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدى تقوي على رد الحبيب الغادى

يادهر فيم فجعتني بحليلة كانت خلاصة عدتي وعتادى

ان كنت لم ترحم ضناى لبعدها
افلا رحمت من الأسى أولادي

ومن البلية أن يسام أخو الأسي
رعي التجلد وهو غير جماد

هيهات بعدك أن تقر جوانحي
أسفاً لبعدك أو يلين مهادي

ولهي عليك مصاحب لمسيرتى
والدمع فيك ملازم لو سادي

فاذا انتبهت فأنت أول ذكرتى
واذا أويت فأنت آخر زادي

هذه القصيدة من النوع الذى يسميه الافرنج Poesie intime وهو شعر الحياة المنزلية الباطنة ، وان

اشارة البارودى الى الدمع الذى سيلازم وسادته بعد فرقتها :
أفضل عندى على بساطتها من دك الجبال وكسوف الشمس
جزعا !

وقد نظم البارودى أكثر شعر المنفى فى مدينة كندى .
حيث أقام عشرة أعوام ووجد منظراً طبيعيا من أبهى
مناظر الدنيا . وصف المرحوم عرابى باشا فى مذكراته
هذه المدينة ، قال : «وفى سنة ١٨٩٢ انتقلنا الى مدينة
كندي عاصمة جزيرة سيلان للاقامة فيها حيث وجدنا
مناخها فى زمن الربيع جميلا ، وكان قد سبقنا اليها بالاقامة
محمود باشا سامي ويعقوب باشا سامي وطلبة باشا عصمت

«ومدينة كندى كائنة فى واد ذى ثلاث شعب بين ثلاثة
جبال ، وفيها بيت للحاكم ومحكمة نظامية فى بيت ملوك
السنجليز ، وفيها بركة عظيمة طولها ميل وعرضها من ٢٠٠
متر الى ٤٠٠ متر تنصب فيها مجارى السيل من رؤس الجبال
وعليها حاجز من الشمال وقنطرة بباب لصرف المياه الزائدة
عن منسوبها ، وعلى حافتيها أشجار السيجو والمنجو والدوم
وجوز الهند ، وهى محل النزهة العمومية

« وفوق الجبل خزان للمياه المنبجسة من قمته طوله
نصف ميل وعرضه ١٠٠ متر وعليه سد عظيم ، وفى جانبه
الجنوبى جدول فوق سطح الخزان تنصرف فيه المياه الزائدة

وتمتد منه المواسير الموصلة الي أعلى نقطة من بيوت المدينة

« وهناك منتزه عظيم يقال له جنينـة (برادينيا) على نهر برادينيا مساحتها نحو ٦٠٠ فدان وفيها من جميع أنواع الشجر وكل شجرة مكتوب على لوحة بجانبها اسمها واسم بلادها .

وفي كندى نحو ٢٠٠٠٠ منهم ١٠٠٠٠ من المسلمين»

ولا ريب أن سكنى الشاعر في هذه المدينة التي جمعت بين جمال المنظر وجلاله في السهل والجبل قد أثرت في نفس شاعر ناوجملته يلهج بذكر الطبيعة لهج الحمام بهديله، وقد أجد له طيب المكان وحسنه منى فتمنى فكانت مصر كل أمانيه:

ياحبذا جرعة من ماء محنية وضجعة فوق برد الرمل بالقاع

ونسمة كشميم الخلد قد حملت
ريا الازاهر من ميث واجراع

ياهل أرانى بذاك الحي مجتمعا
بأهل ودى من قومى وأشياعى

وقال من قصيدة أخرى يتشوق :

ردوا على الصبا من عصرى الخالى
وهل يعود سواد اللمة البالى

لم يدر من بات مسرورا بلذته
أني بنار الأسى من هجره صالي

يا غاصبين علينا هل الى عدة بالوصل يوم أناغي فيه أقيالي

غبتم فأظلم يومي بعد فرقتكم وساء صنع الليالي بعد اجمال

فاليوم لا رسني طوع القياد ولا قلبي الى زهرة الدنيا بميال

أبيت منفردا فى رأس شاهقة

مثل القطامى فوق المربأ العالى

وقال من قصيدة « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة »

أدعو الى الدار بالسقيا وبي ظمأ أحق بالري لكني أخو كرم

منازل لهواها بين جانحي وديعة سرها لم يتصل بفمي

اذا تنسمت منها نفحة لعبت بي الصبابة لعب الريح بالعلم

لاشك أن الشاعر فى البيت الثانى يشير الى حب مكتم فتق قلبه فى شباب عليه نضرة ونعيم كما يفتق برد الندى وردة الروض النضير ، فسار شعره مسير النسيم فى الجنان يضوع رياها . والراجح أن حبه لم يزد عن ذلك الحب الذى قال عنه «لامرتين» انه نشأ عن نظرة حزت فى كبده فشب وكبر وهى باقية فيها كالمدية التي يتركها عابر سبيل فى جذع الشجرة ، فما كان أشد لوعته ، وما كان اكبر ألمه .

فلا تسألي عن هواي فانني

وربك أدري كيف زلت بي النعل

فما هي الا أن نظرت فجاءة

(بحلوان) حيث انهار وانعقد الرمل

الى نسوة مثل الجمان تناسقت فرائده حسنا وألفه الشمل
تكنفن تمثالا من الحسن رائعا يجن جنونا عند رؤيته العقل

فكان الذي لولاه مادرت هائما
أرود الفيافى لاصديق ولا خل

قد تكون (حلوان) أصل حب ذلك الرجل العفيف النفس ، وقد يكون كل حبه فى هذه النظرة أو ذكراها التى عاودته وهاجت بلباله وحنينه وشجنه فى سرنديب فقال

أبيت حزينا في سرنديب ساهرا
طوال الليالى والخليون هجد
اذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة
نزت بين قلبي شعلة تتوقد
وهيهات مابعد الشبيبة موسم
يطيب ولا بعد (الجزيرة) معهد
شباب واخوان رزئت ودادهم
وكل امريء فى الدهر يشقي ويسعد

هذه الابيات توازن أرق أبيات الاغانى أو ديوان الحماسة بعلو النفس الشعري وصدق النزعة وصفاء الروح وقل أن يوفق لمثلها شاعر عصري يعيش فى جو المدنية الحديثة الذي يتعذر على روح الشاعر أن تنطلق فيه حرة بريئة من كل صنعة . ومن أرق شعره فى الغزل قصيدته

التي أولها .

غلب الوجد عليه فبكى وتولى الصبر عنه فشكا

والقصيدة التي مطلعها .

لوى جيده وانصرف

فما ضره لو عطف .

كان الحب من العواطف التى تتجاذب نفسه ، ولا يظنن أحد أن البارودى ما زال مضطربا فى أمله تى استقر فى منفاه فان نفسه من النفوس الكبيرة الوثابة التى لا يقعد بها يأس أو جزع . والتى يتعب فى مرادها الحسم سيما اذا كان أسيراً :

عفاء على الدنيا اذا المرء لم يعش

بها بطلا يحمى الحقيقة شده .

وانى أمرؤ لا استكين لصولة

وان شد ساقى دون مسعاى قده .

أبت لى حمل الضيم نفس أبية

وقلب اذا سيم الأذى شب وقده

ثم انظر كيف تفتح همته التى لا تهدأ باب الامل المغلق حين يقول في نفس القصيدة :

ولا بد من يوم تلاعب بالقنا

أسود الوغى فيه وتمرح جرده

قلوب الرجال المستبدة أكله
وفيض الدماء المستهلة ورده
أحمل صدر النصل فيه سريرة
تعد لامر لا يحاول رده

فى هذه الابيات صور البارودى نفسه التى لا ينال منها أسر يعانيه . بل ولا ضعف لحق بجسمه ولا مشيب :

اني وان كانت الايام قد أخذت
منى وأخنى على الضعف والشمط
فقد أذود السبنتى عن فريسته
وانجأ البطل الحامي فاختبط

وقد يتعجب القاريء من قوله أيضا فى قصيدة .

تالله أهدأ أو تقوم قيامه
فيها الدماء على الدماء تراق

ولكن العجب لا يلبث أن يزول اذا تذكرنا أن النفوس الكبار لا تهدأ لها ثائرة الا اذا جاءها الموت وأنام أصحابها بعنف فناموا

وهناك عاطفة أخرى تجلت فى شعر البارودى ولا شك أن المنفى كان سببا فى تقويتها وتنميتها هى العاطفة الدينية . ولقد كان شاعرنا في سرنديب يعلم كثيراً من المسلمين القراءة والكتابة ويعظ ويخطب فى الجوامع .

وقد نظم هناك قصيدة « كشف الغمة » التي توسل بها الى الله ليعفو عنه ويفرج كربه . ونظم قصيدة أخرى مدح فيها الرسول ومما قاله .

أنا الذي بت من وجدي بروضته
أحن شوقا كطير البانة الهزج
هاجت بذكراه نفسي فاكتست ولها
وأي صب بذكر الشوق لم يهج

ويظهر أن العاطفة الدينية تمكنت من نفسه حتى دفعتها الى التفكير في أمر الوجود وحقيقة الكون . وساعدها على ذلك تقلب الدنيا على عينيه . وتبدل صدقها كذبا . يشهد بذلك قصيدة عثرنا عليها في ديوانه يقول فيها .

سل الفلك الدوار ان كان ينطق
وكيف يحير القول اخرس مطرق
نسائله عن شأنه وهو صامت
ويخبر ما في نفسه وهو مطبق
فلا سره يبدو ولا نحن نرعوى
ولا شأنه يدنو ولا نحن نلحق

ومن بديع التصوير في هذه القصيدة قوله

فضاء يرد العين حسرى ومسرح
يقص جناح الفكر وهو محلق

ولا يفوتنا أن نقول ان من دقق النظر في شعر البارودى وجد فيه نزعة المصور الماهر . أنظر الى قوله في الشيب .

أخلق الشيب جدتي وكساني   خلعة منه رثة الجلباب
ولوي شعر حاجبي على عيـ   ـنى حتى أظل كالهداب

وقوله .

ورب يوم طويل العمر قصره
جري السوابق والوخادة النشط
ترى به القوم صرعى لا حراك بهم
كأنهم من عتيق الخمر قد سقطوا
وللفواخت في أفنانها هزج
قد ماج من لحنهن السهل والفرط
خضر الجناجن والاطواق تحسبها
اطفال ملك لها من سندس قمط

ومن أراد الـكثير فليتصفح ديوانه فكله غرر وآيات وعبر . ونرجوا أن نكون وفيناه بعض حقه

وقد عاد البارودي من منفاه الي مصر سنة ١٩٠٠ :
ويقال أن المرحوم الشيخ محمد عبده هو الذي توسط له في العفو عنـد الخديو . وسنتكلم في الفصل الآتي عن شعره في آخر أيامه بعد أن دار الفلك دورته . وتبدلت الحال حالا .

اخر ايامـــــه

٣

قضى البارودى فى مصر أربعة أعوام من سنة ١٩٠٠ لغاية سنة ١٩٠٤ أومن ٦ جمادى الأولى سنه ١٣١٨ لغايه ٦ شوال سنة ١٣٢٢ وقدكان انحداره فى آخر سنيه من منفاه الى القبر مثل انحدار الشمس عند المغيب فى رؤوس الجبال وقد أعارتها الطبيعة كل ماحوته من روعة وجلال .

ويخيل الي ان نفسه الواسعة ذات الطول والعرض كانت مملوءة بالسكون المهيب الذى يحيط بأعلى الذرى وكان الشاعر يشرف منها على الماضى الممتد فلا يري حوله من كل النواحي الا خرائب وطلولا

ولا يغرنك ماقاله متغزلا حين « أطل على ربوع مصر وسر برؤية أهلها » :

أبا بل رأي العين أم هـذه مصر
فانى أرى فيها عيونا هي السحر
نواعس أيقظن الهوى بلواحظ
تدين لهـا بالفتكة البيض والسمر
فان يك موسى أبطل السحر مرة
فـذلك عصر المعجزات وذا عصر

فأي فؤاد لا يذوب صبابة ومزنة عين لا يصوب لها قطر
بنفسي وان عزت على ريبة من العين في أجفان مقلتها فتر
فتاة يرف البدر تحت قناعها
ويخطر في ابرادها الغصن النضر
تريك جمان القطر في اقحوانة
مفلجة الاطراف قيل لها ثغر

والقصيدة كلها على هذا النمط خالية من الروح الشعرية التى امتاز بها البارودي وهي من الشعر الفاتر الذي يتمخض عنه التكلف ، وكذلك شأن القصيدة الأخري التى قالها شاكرا الخديو عباس على تعطفاته

عباس ياخير الملوك عدالة وأجل من نطق امرؤ بثنائه
أوليتني منك الرضا وجلوت لى وجها قرأت البشر في أثنائه

وقد اشتهر البيت الأخير من هذه القصيده :

لاغرو ان جمع المحامد يافعا وسما بهمته على نظرائه
فالعين وهي صغيرة في حجمها تسع الفضاء بأرضه وسمائه

على ان هـذا البيت ان هو الا أثر من آثار الصنعة العالية ، فاما أن تكون الروح الشعرية قد نضب معينها في آخر العمر فلم تبق للشاعر الا صنعته يحتال بها على صوغ القريض ويستر بها مالحق شاعريته من ضعف أووهن كما تستر الحسناء آثار المشيب في غضون الوجه تحت الالوان

والطلاء

واما أن تكون شاعرية الرجل مازالت فى نضرتها ولكنها عصته حين دعاها سيما وان البارودى قال ماقاله قياما بالواجب نحو مليك عفا عنه ثم أصدر أمره « بتمتعه بالحقوق المدنية » وبلاد رآها بعد ن عاش غريبا عنها سبعة عشر عاما

وهذا الفرض الثانى هو عندي أقرب الى الصحة لأن البارودى كان شاعرا مطبوعا غذي بآداب العرب والفرس والترك ، ومثل هذا الطبع يخيل اليك أحيانا أن العمر يجففه ولكنه لا يلبث أن يتفجر بالماء الزلال

يدل على ذلك قصيدته العينية التي ثبت لنا أن البارودى قالها في الجزيرة بعد رجوعه من منفاه اذ كتب ناقد المنار ولعله المرحوم الأديب السيد حسين رضا ـ في عدد ٧ يناير سنة ١٩٠٥ فصلا يتبين منه أن الكاتب كان من ألصق الناس بالبارودى في آخر أيامه، روى الكاتب : « ومر بقصر الجزيرة بعد عودته من سيلان فتذكر ايام اسماعيل ونظم معتبرا ومذكرا » :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع
هيهات قد ذهب المتبوع والتبع
هذى (الجزيرة) فانظر هل ترى أحداً
ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع

أضحت خلاء وكانت قبل منزلة
للملك منها لو فد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ
ولا سميع اذا ناديت يستمع
كانت منازل أملاك اذا صدعوا
بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع
عاثوا بها حقبة حتى اذا نهضت
طير الحوادث من أوكارها وقعوا
لو انهم علموا مقدار ما فغرت
به الحوادث ماشادوا ولا رفعوا
دارت عليهم رحى الأيام فانشعبوا
أيدى سبا وتخلت عنهم الشيع
كانت لهم عصب يستدفعون بها
كيد العد فما ضروا ولا نفعوا
أين المعاقل بل اين الجحافل بل
أين المناصل والخطية الشرع
لا شيء يدفع كيد الدهر ان عصفت
احداثه أو يقى من شر ما يقع
زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم
ولا تعطلت الاعياد والجمع
والدهر كالبحر لا ينفك ذ كدر
وانما صفوه بين الورى لمع

لو كان للمرء فكر في عواقبه
ماشان أخلاقه حرص ولا طبع
وكيف يدرك مافي الغيب من حدث
من لم يزل بغرور العيش ينخدع
دهـر يغر وآمال تسر وأعـ
ـمار تمر وأيام لهـا خـدع
يسعى الفتى لأمور قد تضر به
وليس يعلم ما يأتي وما يدع
ياأيها السادر المزور من صلف
مهلا فانك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
لعل قلبك بالايمان ينتفع
ان الحياة لثوب سوف تخلعه
وكل ثوب اذا مارث ينخلع

وقد علق كاتب المنار على القصيدة قائلا «فهذه القصيدة من آخر ما نظم ، وفيها من ايات النذر للمغرورين بكثرة المال والدثر ..» .

تلك قصيدة من أجود شعر البارودى ، وهى دمعة وفاء على أيام اسماعيل التي كانت أيام صباه ، وهى من الشعر الحي الذي يستمد قوته من الذكري ، وهى بكاء على الحال التى آلت اليها البلاد بعد عودته اليها ورؤيته المحتل ضاربا

بجرانه فى نواحيها ، ولا ريب أن الالم الصامت كان فى
فؤاده كالجمر تحت الرماد فلم يصرح عنه مقاله وأشد الالم
ما كان مكتما ،

وقد أخبرنى السيد رشيد رضا أن البارودي كان يزوره
احيانا بعد العودة وانه سأل مراراً الشيخ محمد عبده عمن
سيخلف السيد جمال الدين بعده

وتدل قصيدته فى الجزيرة علي ان الرجل كان ثاقب
الفكر لا تعوقه الظواهر عن رؤية ابعد البواطن فلم
تغره الرفاهية المادية التى غرت بعض العرابيين بعد رجوعهم
من المنفى فتوهموا ان اغراضهم تحققت ، ولم تغره مظاهر
العدل المنظم فى الظاهر ، ولكنه ازاح الستار عن ذلك
الظلم الاجنبى المنظم فى الباطن الذي يضؤل بجانبه كل ظلم
من ذلك نفهم كيف كان الشاعر بالامس يبكى من
اسماعيل فأصبح يبكى عليه بخلاف بعض العرابيين

وكأنى بالشاعر أحس دنو الاجل فاستسلم للقضاء فى
هذه القصيدة ولم تحفزه همته الى الفخر ومغالبة الأقدار
ورثى نفسه فيمن رثى حين قال :

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم

ولا تعطلت الاعياد والجمع

فهذا البيت من خير ما قيل فى وصف خروج الانسان

من هذه الحياة الدنيا دون أن يحس الكون بفقده مهما كان عظيما ، وقد قال فيكتور هوجو فى هذا المعنى بيتا يشبه هذا البيت .

Je m, en irai bientot au milieu de la fete
Sans que rien manque au monde immense et radieux

وقد تكون هذه القصيدة فى جملتها أثراً من آثار التأمل الذى يعترى الانسان عند تقلص الايام وتقلب الدنيا ويدفعه الى عرض الماضى فى صفحة الفكر فاذا بكى عليه كان بكاؤه المر عصارة التجارب والالم

وقد كان الاستاذ خليل مطران يختلف اليه كثيراً فى آخر أيامه ، ومما قاله عنه فى فصل كتبه . « ان هذا الوزير الذى اقتدح زناد تلك الهمة وشبت بعد استقالته تلك الفتنة المستطيرة لم يكن مع شجاعته واقدامه اللذين بلغ بهما اقصى مبالغهما فى مواطن القتال الارجل سكينة ووداعة وحلم ، وقلما كان رجل أرق منه قلبا على ذويه واحفظ عهداً لحبيبه ولعل اصابته بكريمتيه هى التى قلصت من كبده وأودت بجسده . ثم ان العارف بحوادث حياته لا يكاد يصدق أنه هو الرجل الذى كان ديدنه فى سنواته الاخيرة أن يجمع اطفاله وهم غلامان واربع فتيات فيجعل لهم مكانا خصيصاً من البيت لتلقي العلوم واللغات بضروبها

على اساتذة يحضرون فى مواعيد كأنهم في مدرسة قانونية فيرعي سيرهم كل يوم ثم يمتحنهم كل أسبوع مرة ثم يمتحنهم آخر كل شهر ويوزع عليهم المكافات

« على أن هذا البر انما كان احدى شمائله وفضائله فان أريد بعض التعداد فالجودة مع الجود والكياسة مع لطف الحس والصفح مع المقدرة والايناس مع علو النفس وشرف الطبع »

ونضيف الى ذلك، أن البارودى قد تمكن بفضل جده وكده من تجديد جزء عظيم من ثروته تركه لاهله وذويه فكان طول حياته مثال الهمة العلياء ولم يمنعه قول الشعر من قيادة الجحافل، ورياسه الوزاره في احرج الاوقات، والعمل

وكل ما يعاب على الرجل أنه لم يوفق في حياته السياسية كما وفق فى شعره . ومهما كان من الامر فقد كانت حياة هذا الرجل صحيفة كبري من التاريخ المصرى تشهد له بحسن الطوية وصدق العزيمة وكراهية الظلم والاعتدال والروية والأناة

وهو مؤسس دولة الشعر التى يحمل لواها اليوم شوقى ومطران وحافظ وآخرون بعد أن غادرهم شيخ الشعراء بعده المرحوم صبرى باشا الذي ننعاه اليوم الى

الشعر كما ننعى فني الجود الى الجود

ولا أعرف رجلا كافح الردى مثلما كافحه البارودى، وطاعن خيلا من فوارسها الدهر مثلما طاعنها، وخاض وقائع الحياة مثلما خاضها، وقد كان خلق الرجل عظيما وذكاؤه عظيما وشعره عظيما فكان الثلاثة في مستوى واحد

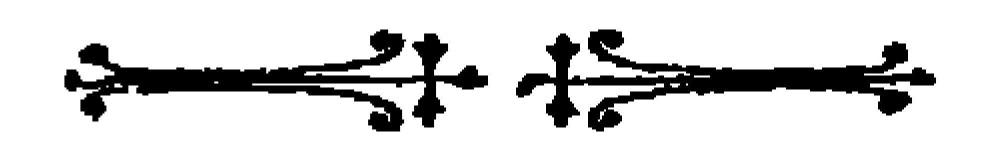
وفى اعتقادى ان أكثر شعره ارتباطا بحياته شعر المنفي، شعر العواطف، شعر الوجدان، شعر الالم.

وليس فى هذا الشعر ما يبعث على اليأس والاستسلام أو يولد خوراً فى العزيمة، وانما هو درس من دروس الشجاعة والصبر والجلد. درس من دروس الوفاء وعلو النفس وكرم العنصر فأخلق به أن يكون انشودة الصبي فى مكتبه. والناسك فى صومعته. والزارع فى مزرعته. والوطنى فى جهاده

وقد لبي دعوة ربه فى ٦ شوال سنة ١٣٢٢ (ديسمبر سنة ١٩٠٤) فبكته مصر وبكاه الشعراء الذين وقفوا يوم الاربعين لدى قبره «ونبهوا الاصداء النائمة حوله فى بهو السكون الخالد». وكان ذلك يوما مشهوداً لم يسبق مثله الا للمعرى. ومن خير ما قيل فيه بل خير ما نختم به هذا البحث قول مطران.

وما كان سجنك الا قراراً وقد تعب الجد أن يسهرا

ولا النفى الا خلاء أعـدت
به زمن الادب الازهرا
ولا الشكل الا لتأسى اساك
وتبكى بكاء ليوث الشرى
ولا الغض عما تراه العيون
الا وقد ساء ان ينظروا
اذا وسع الـكون فكر امرىء
فلا بأس بالطرف ان يحسرا
على الشمس أن تهدى المبصرين
وليس على الشمس أن تبصرا



مختارات

ننشر في هذا الباب مانختاره من قصائد البارودي التي اشرنا الى اكثرها في اثناء البحث حتى تكون عند القارىء فكرة كاملة من الرجل وشعره، قال رحمه الله :

هل من فتى ينشد قلبي معي ... بين خذوز العين بالاجرع
كان معي ثم دعاه الهوي ... فمر بالحي ولم يرجع
فهل اذا ناديته باسمه ... يفيق من سكرته او يعي
هيهات يلقى رشدا بعد ما ... اغواه لحظ الرشأ الاتلع
فيادموع القطر سيلي دما ... ويابنات الايك نوحي معي
وانت يانسمة وادي الغضا ... مري بريأك على مربعي
وانت ياعصفورة المنحني ... بالله غني طربا واسجعي
وانت ياعين اذا لم تفي ... بذمة الدمع فلا تهجعي
صبابة اغرت على الاسى ... ودلت السهد على مضجعي
ويلاه من نار الهوي انها ... لولا دموعي احرقت اضلعي
ابيت ارعى النجم في سدفة ... ضل بها الصبح فلم يطلع
لااهتدي فيها الى حيلة ... تقي حياتها من يدى مصرعي
طورا اداري لوعتي بالمني ... وتارة يغلبني مدمعي
فهل الى الاشواق من غاية ... أم هل الى الاوطان من مرجعي
لاتأس ياقلب على مامضي ... لابد للمحنة من مقطع

وقال يصف حرب سكان جزيرة أقريطش «كريد» حين خرجوا عن الطاعة سنة ١٢٨٢ ويتشوق الى مصر

أخذ الكرى بمعاقد الاجفان وهفا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتالع والربى بجران
لاتستبين العين فى ظلمائه الا اشتعال أسنة المران
نسرى به مابين لجة فتنة تسمو غواربها على الطوفان
فى كل مربأة وكل ثنية تهدار سامرة وعزف قيان
تستن عادية ويصهل أجرد وتصيح أجراس ويهتف عان
قوم ابى الشيطان الا خسرهم فتسللوا من طاعة السلطان
ملؤا الفضاء فما يبين لناظر غير التماع البيض والخرصان
فالبدر أكدر والسماء مريضة والبحر أشكل والرماح دوان
والخيل واقفة على ارسانها لطراد يوم كريهة ورهان
وضعوا السلاح الى الصباح وأقبلوا يتكلمون بألسن النيران
حتي اذا ماالصبح أسفر وارتمت عيناي بين ربى وبين مجان
فاذا الجبال أسنة واذا الوها د أعنة والماء أحمر قانى
فتوجست فرط الركاب ولم تكن لتهاب فامتنعت على الارسان
فزعت فرجعت الحنين وانما تحنانها شجن من الاشجان
ذكرت مواردها بمصر وأين من ماء بمصر منازل الرومان
والنفس لاهية وان هي صادفت خلفاً بأول صاحب ومكان
فسقي السماك محلة ومقامة في مصر كل مرنة مرنان
حتي تعود الارض بعد ذبولها شتي النبات كثيرة الألوان

بلد خلعت به عـذار شبيبتي وطرحت في يمني الغرام عناني
فصعيدها أحوى النبات وسرحها ألمى الظلال وزهرها متداني
فارقتها طلباً لما هو كائن والمرء طوع تقلب الأزمان
حمل الزمان على مالم أجنه ان الأماثل عرضة الحدثان
نقموا على وقد فتكت شجاعتي ان الشجاعة حلية الفتيان
فليهنأ الدهر الغيور برحلتي عن مصر ولتهدأ صروف زماني
فلئن رجعت فسوف أرجع واثقا بالله أعلمت الزمان مكاني
صادقت بعض القوم حتى خانني وحفظت منه مغيبه فرماني
زعم النصيحة بعد أن بلغت به غشا وجاز الحق بالبهتان
فليجر بعد كما أراد بنفسه ان الشقي مطية الشيطان
وكذا اللئيم اذا أصاب كرامة عادى الصديق ومال بالاخوان
فليعلمن أخو الجهالة قصره عني وان سبقت به قدمان
فلربما رجح الخسيس من الحصى بالدر عند تراجح الميزان
شرف خصصت نه وأخطأ حاسدي مسعاته فهذي به وقلاني

وقال أيضا

مجاريا قصيدة «أراك عصي الدمع شيمتك الصبر»

طربت وعادتني المخيلة والسكر وأصبحت لا يلوى بشيمتي الزجر
كأني مخمور سرت بلسانه معتقة مما يضن بها التجر
صريع هوى يلوى بي الشوق كلما تلألأ برق أو سرت ديمة غزر
اذا مال ميزان النهار رأيتني على حسرات لا يقاومها صبر
يقول أناس أنه السحر ضلة وما هي الا نظرة دونها السحر
فكيف يعيب الناس أمري وليس لي ولا لامرىء في الحب نهي ولا أمر
ولو كان مما يستطاع دفاعه لالوت به البيض المباتير والسمر

ولكنه الحب الذى لو تعلقت ... شرارته بالجمر لاحترق الجمر
على أني كاتمت صدرى حرقة ... من الوجدلا يقوى على مسها صدر
وكفكفت دمعا لو أسلت شؤنه ... على الارض ماشك امرؤ أنه بحر
حياء وكبرا أن يقال ترجحت ... به صبوة أو فل من غربه الهجر
وانى امرؤ لولا العوائق أذعنت ... لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم ... لهافى حواشى كل داجية فجر
اذا استل منهم سيدغرب سيفه ... تفزعت الافلاك والتفت الدهر
لهم عمد مرفوعة ومعاقل ... وألوية حمر وأفنية خضر
ونارلهـا فى كل شرق ومغرب ... لمدرع الظلماء ألسنة حمر
تمديدا نحو السماء خضيبة ... تصافحها الشعرى ويلثمها الغفر
وخيل يرج الخافقين صهيلها ... نزائع معقود باعرافها النصر
معودة قطع الفيافى كأنها ... خدارية فتخاء ليس لها وكر
أقاموا زمانا ثم بدد شملهم ... أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر
فلم يبق منهم غير آثار نعمة ... تضوع برياها الاحاديث والذكر
وقد تنطق الآثاروهي صوامت ... ويثنى برياه على الوابل الزهر
لعمرك ماحى وان طال سيره ... يعد طليقا والمنون له أسر
وما هذه الايام الا منازل ... يحل بها سفر ويتركها سفر
ولا تحسبن المرء فيها بخالد ... ولكنه يسعى وغايته العمر

وقال

سل الفلك الدوار ان كان ينطق ... وكيف يحير القول اخرس أخرق
نسائله عن شأنه وهو صامت ... ونخبر مافى نفسه وهو مطبق
فلاسره يبدو ولا نحن نرعوى ... ولا شأوه يدنو ولا نحن نلحق
وكيف تنال النفس منه لبانة ... وأقرب مافيه عن الظن أسحق

قضاء يرد العين حسرى ومسرح | يقص جناح الفكر وهو محلق
أقام على رغم الفناء وكل ما | تراه على وجه البسيطة ينفق
فكم ثل عرشا واستباح قبيلة | وفرق جمعا وهو لا يتفرق
تحسي مرارات الكبود فلم تزل | به صبغة من لونها فهو أزرق
نهار وليل يدأبان وأنجم | تغيب الى ميقاتها ثم تشرق
ترف كزهر طوحته عواصف | بلجة ماء فهو يطفو ويغرق
سوابح لا تنفك تجرى لغاية | يقصر عنها الكاهن المتعمق
فيا أيها السارى على غير هدية | رويدا فان الباب دونك مغلق
أتحسب ان الظن يدرك بعض ما | تحاوله والظن للمرء موبق
وكيف ينال الحس وهو معدد | سريرة غيب دونها الحس يصعق
فلا تتبع ريب الظنون فكل ما | تصوره الانسان وهم ملفق
ولا تحسبن الحدس يدرك ما نأى | فما كل حين قائف الحدس يصدق
وأين من المخلوق ادراك حكمة | بها ينشىء الله القرون ويمحق
فلو علم الانسان حالة نفسه | كفاه ولكن ابن آدم أخرق
اذا المرء لم يملك بوادر وهمه | عن القول فيما لم يفد فهو أحمق
فاياك والدنيا فان نعيمها | يزول وملبوس الجديدين يخلق
فان هى أعطتك الليان فانها | ستخشن من بعد الليان وتخرق
فلا ودها يبقي ولا صفو عيشها | يدوم ولا موعودها يتحقق
فكم أخلفت وعداً وملت صحابة | وخانت وفيا فهى بلهاء تنزق
وكيف يعيش الدهر خلوا من الأسي | سقيم يغادي بالهموم ويطرق
لعمر أبي ان الحياة ولو صفت | مسافة يوم فهو صفو مرنق
ففيم يود المرء طول حياته | وفي طولها شمل الهناء مفرق
وما الدهر الا مستعد لوثبة | فخذرك منه فهو غضبان مطرق

كأن هلال الافق سيف مجرد عليقا به والنجم سهم مفوق
أباد بنيه ظالما غير راحم فيا عجبا من والد ليس يشفق
فلا تبتئس بالامر تخشي وقوعه فقد يأمن الانسان من حيث يفرق
فما كل ما تهواه يأتيك بالمني ولا كل ما تخشاه فى الدهر يطرق
وكن واثقا بالله فى كل محنة فالله أولي بالعباد وأرفق

وقال أيضا

غلب الوجد عليه فبكى وتولى الصبر عنه فشكا
وتمنى نظرة يشفي بها علة الشوق فكانت مهلكا
يالها من نظرة ماقاربت مهبط الحكمة حتي انهتكا
نظرة ضم عليها هدبه ثم أغراها فكانت شركا
غرست فى القلب منى حبه وسقته أدمعى حتى زكا
آه من برح الهوى ان له بين جنبى من النار ذكا
كان أبقي الوجد منى رمقا فاحتوي البين علي ما تركا
ان طرفى غر قلبي فمضى فى سبيل الشوق حتي هلكا
قد تولى اثر غزلان النقا ليت شعرى اى واد سلكا
لم يعد بعد وظني انه لج فى نيل المنى فارتبكا
ويح قلبى من غريم ماطل كلما جدد وعدا أفكا
ظن بى سوءا وقد ساومته قبلة فازور حتي فركا
ياغزالا نصبت أهدابه بيد السحر لصيدى شبكا
قد ملكت القلب فاستوص به انه حق على من ملكا
لا تعذبه على طاعته بعد ما تيمته فهو لكا
غلب اليأس على حسن المني فيك واستولى على الضحك البكا

فالى من أشتكي ماشفنى   من غرام واليك المشتكى
سلكت نفسى سبيلا فى الهوى   لم تدع فيه لغيري مسلكا

طائر على غصن

ونبأة اطلقت عيني من سنة   كانت حبالة طيف زارني سحرا
فقمت اسأل عيني رجع ماسمعت   اذنى فقالت لعلي ابلغ الخبرا
ثم اشرابت والفت طائرا حذرا   على قضيب يدير السمع والبصرا
مستوفزا ينتزي فوق ايكته   تنزى القلب طال العهد فادكرا
لا يستقر له ساق على قدم   فكلما هدأت انفاسه نفرا
يهفو به الغصن احيانا ويرفعه   دحو الصوالج فى الديمومة الأكرا
مابالة وهو فى امن وعافية   لا يبعث الطرف الاخائفا حذرا
اذا علابات فى خضراء ناعمة   وان هوى ورد الغدران أو نقرا
ياطير نفرت عني طيف غانية   قد كان اهدى لى السراء حين سرى
حوراء كالريم الحاظا اذا نظرت   وصورة البدر اشراقا اذا سفرا
زالت خيالتها عني وأعقبها   شوق أحال على الهم والسهرا
فهل الى سنة ان أعوزت صلة   عوذ ننال به من طيفها الوطرا

***

كان رحمه الله حين ذهب الى حرب الروس (١٢٩٤ﻫ) كتب لابناء وده كتبا ولم تصل اليهم وظن وصولها وتقصيرهم عن المبادرة بالاجابة وقد وصل الي الشيخ حسين المرصفى أحد كتابين كتبهما له يوم قدومه الى مصر بعد مدة طويلة من كتابته ، وهذه أبياته :

ياناعس الطرف الى كم تنام   اسهرتنى فيك ونام الانام
واشك هذا الليل ان ينقضي   والعين لا تعرف طيب المنام

الله فى عين جفاها الكري   فيكم وقلب قد براه الغرام
قد رحم العاذل حالى فما   يرضي لذلى فى الهوى بالمنام
ويلاه من ظبي الحى انه   جرعنى بالصد مر الحمام
يغضب من قولي آه وهل   قولى آه ياابن ودى حرام
لا كتبه تترى ولا رسله   تأتى ولا الطيف يوافى لمام
طال النوى من بعدكم وانقضت   بشاشة العيش وساء المقام
لو تاح ان مر نسيم الصبا   والبرء لى فيه معا والسقام
ياليتني فى السلك حرف سرى   أو ريشة بين خوافى الحمام
حتى اوافى مصر في لحظة   اقضى بها فى الله حق الذمام
مولاي قد طال مزير النوى   فكل يوم مر بى الف عام
انظر حولى لا ارى صاحبا   الا جماهير وخيلا صيام
ورديد باتا صارخا فى الدجى   ارجع وراء انه لا أمام
يقتبل الصبح ويمضى الدجى   وينقضي النور ويأتى الظلام
ولا كتاب من حبيب اتى   ولا اخو صدق يرد السلام
في هضبة من أرض دبزيجة   ليس بها غير بغاث وهام
من خلفنا البحر وتلقاءنا   سواد جيش مكفهر لهام
فتلك حالى لا رمتك النوي   فكيف انتم بعدنا ياهمام

وقال يجارى قصيدة ابى نواس في مدح الامير محمد ابن الرشيد،
وسنذكر هنا قصيدة ابي نواس اتماما للفائدة ثم نعقبها بقصيدة البارودي،

قال أبو نواس :

يادار مافعلت بك الايام   لم تبق منك بشاشة تستام
عرم الزمان على الذين عهدتهم   بك قاطنين وللزمان غرام
أيام لا اغشى لأهلك منزلا   الا مراقبة على ظلام

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم   واسمت سرح اللهو حيث اساموا

وبلغت مابلغ امرؤ بشبابه   فاذا عصارة كل ذاك أثام

وتجشمت بي هول كل تنوفة   هوجاء فيها جرأة اقدام

تذر المطي وراءها فكأنها   صف تقدمهن وهي أمام

واذا المطي بنا بلغن محمدا   فظهورهن على الرحال حرام

قربنا من خير من وطيء الحصا   فلها علينا حرمة وذمام

رفع الحجب لنا فلاح لناظر   قمر تقطع دونه الاوهام

ملك اذا علقت يداك بحبله   لايعتفيك البؤس والاعدام

ملك توحد بالمكارم والعلى   فرد فقيد الند فيه همام

ملك اغر اذا شربت بوجهه   لم يعدك التبجيل والاعظام

فالبهو مشتمل ببدر خلافة   لبس الشباب بنوره الاسلام

سبط البنان اذا احتبي بنجاده   فرع الجماجم والسماط قيام

ان الذي يرضي الاله بهديه   ملك تردى الملك وهو غلام

ملك اذا أعتبر الأمور مضى به   رأى يفل السيف وهو حسام

داوى به الله القلوب من العمي   حتي افقن ومابهن سقام

أصبحت يابن زبيدة ابنة جعفر   املا لعقد حباله استحكام

فسلمت للامر الذي ترجي له   وتقاعست عن يومك الايام

وقال البارودى فى الوزن والروي :

ذهب الصبا وتوالت الايام   فعلى الصبا وعلى الزمان سلام

تالله انسي ماحييت عهوده   ولكل عهد فى الكرام ذمام

اذ نحن فى عيش ترف ظلاله   ولنا بمعترك الهوي آثام

تجرى علينا الكاس بين مجالس   فيها السلام تعانق ولزام

فى فتية فاض النعيم عليهم   ونماهم التبجيل والاعظام

ذهبت بهم شيم الملوك فليس فى — تلعابهم هذر ولا ابرام
لا ينطقون بغير آداب الهوي — سمح النفوس على البلاء كرام
من كل ابلج يستضاء بنوره — كالبدر حلى صفحتيه غمام
سهل الخليقة لا يسوء جليسه — بين المقامة واضح بسام
متواضع للقوم تحسب انه — مولي لهم في الدار وهو همام
ترنو العيون اليه فى أفعاله — وتسير تحت لوائه الاقوام
فاذا تكلم فالروءوس خواضع — واذا تناهض فالصفوف قيام
لهو وتلعب بين خضر حدائق — ليست بغير خيولنا تستام
حتي انتبهنا بعد ان ذهب الصبا — ان اللذاذة والصبا أحلام
لا تحسبن العيش دام لمترف — هيهات ليس على الزمان دوام
تأتي الشهور وتنتهي ساعاتها — لمع السراب وتنقضى الاعوام
والناس فيما بين ذلك وارد — أو صادر تجرى به الايام
لا طائر ينجو ولا ذو مخلب — يبقي وعاقبة الحياة حمام
فادرأ هموم النفس عنك اذا اعترت — بالكاس فهي علي الهموم حسام
فالعيش ليس يدوم فى الوانه — الا اذا دارت عليه الجام
من خمرة تذر الكبير اذا انتشى — بعد أشتعال الشيب وهو غلام
لعب الزمان بها فغادر جسمها — شبحا تهافت دونه الاوهام
حمراء دار بها الحباب فصورت — فلكا تحف سماءه الاجرام
لا تستقيم العين فى لمعانها — وتزل عند لقائها الاقدام
تعشو الركاب فان تبلج كأسها — ساروا وان زال الضياء أقاموا
حبست باكلف لم يصل بفنائه — نور ولم يسرح عليه ظلام
حتى اذا اصطفقت وطار فدامها — وثبت فلم تثبت لها الاجسام
وقدت حميتها فلولا مزجها — بالماء بعد الماء شب ضرام

أسم العيون بنورها لكنها برد على شرابها وسلام
فاصقل بها صدأ الهموم ولاتكن غرا تطيش بلبه الآلام
واعلم بأن المرء ليس بخالد والدهر فيه صحة وسقام
يهوي الفتي طول الحياة وانها داء له لو يستبين عقام
فاطمح بطرفك هل ترى من أمة خلدت وهل لابن السبيل مقام
هذى المدائن قد خلت من أهلها بعد النظام وهذه الاهرام
لاشيء يخلد غير ان خديعة فى الدهر تنكل دونها الاحلام
ولقد تبينت الامور بغيرها وأبى علي النقض والابرام
فاذا السكون تحرك واذا الخمو د تلهب واذا السكوت كلام
واذا الحياة ولا حياة منية تحيا بها الاجساد وهى رمام
هذا يحل وذاك يرحل كارها عنه فصلح تارة وخصام
فالنور لو بينت امرك ظلمة والبدء لو فكرت فيه ختام

• • •

ولابى نواس قصيدة أخرى مدح بها الخصيب ابن عبد الحميد العجمى امير مصر من طرف الرشيد وكان قصده من بغداد:

اجارة بيتينا أبوك غيور وميسور مايرجي لديك عسير
فان كنت لاخلا ولاأنت زوجة فلا برحت دونى عليك ستور
وجاورت قوما لا تزاور بينهم ولا وصل الا ان يكون نشور
فما أنا بالمشغوف ضربة لازب ولا كل سلطان على قدير

وهى قصيدة طويلة وقد نظم شاعرنا قصيدة فى وزنها ورويها، قال (رواية الوسيلة الادبية):

تلاهيت الا مايجن ضمير وداريت الا ما ينم زفير
وهل يستطيع المرء كتمان امره وفى الصدر منه بارح وسعير

فياقاتل الله الهوى ما أشده ... على المرء اذ يخاوبه فيغير
تلين اليه النفس وهى ابية ... ويجزع منه القلب وهو صبور
نبذت له رمحي واغمدت صارمي ... ونهنهت مهري والمراد غزير
واصبحت مغلول المخالب بعد ما ... سطوت ولي في الخافقين زئير
فيا لسراة القوم دعوة عائذ ... اما من سميع فيكم فيجير
لطال على الليل حتى مللته ... وعهدى به فيما علمت قصير
الا فرعى الله الصبا ما ابره ... وحيا شبابا مر وهو نضير
اذ العيش افواف ترف ظلاله ... علينا وسلسال الوفاء نمير
واذ نحن فيما بين اخوان لذة ... على شيم ما ان بهن نكير
تدور علينا الكاس بين ملاعب ... بها اللهو خدن والشباب سمير
فالحاظنا بين النفوس رسائل ... وريحاننا بين الكؤوس سفير
عقدنا جناحي ليلنا بنهارنا ... وطرنا مع اللذات حيث تطير
وقلنا لساقينا ادرها فانما ... بقاء الفتى بعد الشباب يسير
فطاف بها شمسية لهبية ... لها عنده الباب الرجال تؤور
اذا ماشربناها اقمنا مكاننا ... وظلت بنا الارض الفضاء تدور
وكم ليلة افنيت عمر ظلامها ... الى ان بدا للصبح فيه قتير
شلت بها قلبي ومتعت ناظرى ... ونعمت سمعى والبنان طهور
صنعت بها صنع الكريم باهله ... وجيرته والغادرون كثير
فما راعنا الا حفيف حمائم ... لها بين أطراف الغصون هدير
تجاوب اترابا لها فى خمائل ... لهن بها بعد الحنين صفير
نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ... ولا دائرات الدهر كيف تدور
توسد هامات لهن وسائدا ... من الريش فيه طائل وشكير
كأن على أعطافها من حبيكها ... تمائم لم تعقد لهن سيور

خوارج من ايك دواخل غيره   زهاهن ظل سابغ وغدير
اذا غازلتها الشمس رفت كانما   على صفحتيها سندس وحرير
فلما رأيت الصبح قد رف جيده   ولم يبق من نسج الظلام ستور
خرجت اجر الذيل تيها وانما   يتيه الفتي ان عف وهو قدير
ولى شيمة تابي الدنايا وعزمة   ترد لهام الجيش وهو يمور
اذا اسرت فالارض التي نحن فوقها   مراد لمهري والمعاقل دور
فلا عجب ان لم يصرني منزل   فليس لعقبان الهواء وكور
همامة نفس ليس ينفى ركابها   رواح على طول المدي وبكور
معودة ان لا تكف عنانها   عن الجد الا ان تتم أمور
لها من وراء الغيب اذن سميعة   وعين تري مالا يراه بصير
وفيت بما ظن الكرام فراسة   بامري ومثلى بالوفاء جدير
واصبحت محسود الجلال كانني   على كل نفس فى الزمان أمير
اذا صلت كف الدهر من غلوائه   وان قلت غصت بالقلوب صدور
ملكت مقاليد الكلام وحكمة   لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت فى عصر الكلام الذى انقضي   لباء بفضلى جرول وجرير
ولو كنت ادركت النواسى لم يقل   اجارة بيتينا أبوك غيور
وماضرنى اني تاخرت عنهم   وفضلى بين العالمين شهير
فياربما أخلى من السبق أول   وبز الجياد السابقات أخير

* * *

وقال النابغة الذبيانى واسمه زياد يصف المتجردة زوج النعمان بامره ويقال ان النعمان مع ذلك لما سمع القصيدة غضب على النابغة وجفاه وظن به حتي اختفي منه ثم ظهرت براءته له وعاد الى موضعه من منادمته :

امن آل ميـة رائح أو مغتـد   عجلان ذا زاد وغير مزود

افد الترحل غير ان ركابنا   لما تزل برحالنا وكأن قد

زعم الهمام بان رحلتنا غدا   وبذاك تنعاب الغراب الاسود

لامرحبا بغد ولا اهلا به   ان كان تفريق الاحبة فى غد

حان الرحيل ولم تودع مهددا   والصبح والامساء منها موعدى

في اثر غانية رمتك بسهمها   فاصاب قلبك غير ان لم تقصد

غنيت بذلك اذهم لك جيرة   منهـا بعطف رسـالة وتودد

ولقد أصاب فؤاده من حبهـا   عن ظهر مرنان بسهم مصرد

نظرت بمقلة شادن متربب   احوى احم المقلتـين مقـلد

والنظم في سلك يزين نحرها   ذهب توقد كالشهاب الموقد

صفراء كالسيراء اكمل خلقها   كالغصن في غلوائه المتاود

والبطن ذوعكن لطيف طيه   والاتب تنفجه بثدي مقعد (١)

مخطوطة المتنين غير مفاضة   ريا الروادف بضة المتجرد

قامت تراءي بين سجفي كلة   كالشمس يوم طلوعها بالاسعد

أو درة صدفية غواصها   بهج متى يرها يهل ويسجد

أو دمية من مرمر مرفوعة   بنيت بآجر يشاد وقرمد

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه   فتناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كأن بنانه   عنم يكاد من اللطافة يعقد

نظرت اليك بحاجة لم تقضها   نظر السقيم الي وجوه العود

تجلو بقادمتي حمامة ايكة   بردا اسف لثاته بالاثمد

كالاقحوان غداة غب سمائه   جفت اعاليه واسفله ند

زعم الهمام بان فاها بارد   عذب مقبله شهي المورد

---

(١) الاتب ثوب رقيق وتنفجه ترفعه وتبعده

زعم الهمام ولم أذقه انه ... عذب اذا ما ذقته قلب ازدد
زعم الهمام ولم اذقه انه ... يشفي بريا ريقها العطش الصدي
اخذ العذاري عقده فنظمنه ... من لؤلؤ متتابع متسرد
لو أنها عرضت لا شمط راهب ... عبد الاله صرورة متعبد
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ... ولخاله رشدا وان لم يرشد
بتكلم لو تستطيع كلامه ... لدنت له اروي الهضاب الصخد
وبفاحم رجل اثيث نبته ... كالكرم مال على الدعام المسند
واذا لمست لمست اجثم جاثما ... متحيزا بمكانه ملء اليد
واذا طعنت طعنت في مستهدف ... رابي المجسة بالعبير مقرمد
واذا نزعت نزعت عن مستحصف ... نزع الحزوّر بالرشاء المحصد
واذا يعض يشد من أعضائه ... عض الكبير من الرجال الأدرد
ويكاد ينزع جلد من أصلى به ... بلوافح مثل السعير الموقد
لا وارد منها يحور لمصدر ... عنها ولا صدر يحور لمورد

وقد مشي البارودى على أثر النابغة وقال على روي قصيدته ،
وسلك فيها مسالك العرب فيما كانت تتمدح به من مباشرة الحروب
وارتياد المنابت وركوب الخيل وشرب الخمر ومزاولة النساء :

ظن الظنون فبات غير موسد ... حيران يكلأ مستنير الفرقد
تلوي به الذكرات حتى انه ... ليظل ملقي بين أيدى العود
طورا يهم بان يزل بنفسه ... سرفا وتارات يميل على اليد
فكأنما افترست بطائر حلمه ... مشمولة او ساغ سم الاسود
قالوا غدا يوم الرحيل ومن لهم ... خوف التفرق أن أعيش الى غد
هى مهجة ذهب الهوى بشغافها ... معمودة ان لم تمت فكان قد
يأهل ذا البيت الرفيع مناره ... أدعوكم يا قوم دعوة مقصد

انى فقدت العام بين بيوتكم … قلبي فردوه علىّ لاهتدي
او فاستقيدونى ببعض قيانكم … حتي ترد الى نفسى أو تدي
بل يا أخا السيف الطويل نجاده … ان أنت لم تحم النزيل فأغمد
هذي لحاظ الغيد بين شعابكم … فتكت بنا خلسا بغير مهند
من كل ناعمة الصبا بدوية … ريا الشباب سليمة المتجرد
هيفاء ان خطرت سبت واذا رنت … سلبت فؤاد العابد المتشدد
يخفضن من أبصارهن تختلا … للنفس فعل القانتات العبد
فاذا أصبن أخا الشباب سلبنه … ورمين مهجته بطرف أصيد
واذا لحن اخا المشيب قلينه … وسترن ضاحية المحاسن باليد
فلئن غدوت دريئة لعيونها … فلقد أفل زعارة المتمرد
ولقد شهدت الحرب في ابانها … ولبئس راعى الحي ان لم أشهد
تتقصف المران فى حجراتها … ويعود فيها السيف مثل الادرد
عصفت بها ريح الردى فتدفقت … بدم الفوارس كالأتي المزبد
مازلت أطعن بينها حتي انثنت … عن مثل حاشية الرداء المجسد
ولقد هبطت الغيث يلمع نوره … في كل وضاح الأسرة أغيد
تجري به الآرام بين مناهل … طابت مشاربها وظل ابرد
بمضمر أرن كان سراته … بعد الجميم سبيكة من عسجد
خلصت له اليمني وعم ثلاثة … منه البياض الى وظيف أجرد
فكأنما انتزع الاصيل رداءه … سلبا وخاض من الضحى في مورد
زجل يردد في اللهات صهيله … دفعا كزمزمة الحبي المرعد
متلفتا عن جانبيه يهزه … مرح الصبا كالشارب المتغرد
فاذا ثنيت له العنان وجدته … يعطو كسيد الردهة المتورد
واذا أطعت له العنان رأيته … يطوي المهامه فدفدا في فدفد

يكفيك منه اذا استحس بنبأة شدا كالهوب الاباء الموقد
صلب السنابك لا يمر بجلمد في الشد الا رض فيه بجلمد
نعم العتاد اذا الشفاه تقلصت يوم الكريهة في العجاج الاربد
ولقد شربت الخمر بين غطارف شم المعاطس كالغصون المبد
يتلاعبون على الكؤوس اذا جرت لعبا يروح الجد فيه ويغتدى
لا ينطقون بغير ما أمر الهوى فكلامهم كالروض مصقول ندى
من كل وضاح الجبين كانه قمر توسط جنح ليل أسود
بل رب غانية طرقت خباءها والنجم يطرف عن لواحظ ارمد
قالت وقد نظرت الى فضحتني فارجع لشانك فالرجال بمرصد
فخلبتها بالقول حتي رضتها وطويتها طي الحبيزة باليد
مازلت امنعها المنام غواية حتي لقد بتنا بليل الانقد
روعاء تفزع من عصافير الضحي ترفا وتجزع من صياح الهدهد
حتي اذا نم الصبا وتتابعت زيم الكواكب كالمها المتبدد
قالت دخلت وما اخالك بارحا الا وقد ابقيت عار المسند
فسحتها حتي اطان فؤادها ونفيت روعتها برأى محصد
وخرجت اخترق الصفوف من العدي متلثما والسيف يلمع في يدي
فلنعم ذاك العيش لولم ينقض ولنعم هذا العيش ان لم ينفد
يرجو الفتي في الدهر طول حياته ونعيمه والمرء غير مخلد

«*»

وقال الشريف محمد الرضى يفتخر ويمدح
أسلافه من أهل البيت :

لغير العلا مني القلا والتجنب ولولا العلا ما كنت في الحب أرغب
اذا الله لم يعذرك فيما ترومه فما الناس الا عاذل أو مؤنب

ملكت بحلمي فرصة ما استرقها ... من الدهر مفتول الذراعين أغلب
فان يك سنى ما تطاول باعها ... فلي من وراء الجد قلب مدرب
بحسبي انى فى الاعادى مبغض ... وانى الى غر المعالى محبب
وللحلم أوقات وللجهل مثلها ... ولكن أيامي الى الحلم أقرب
يصول على الجاهلون واعتلى ... ويعجم فى القائلون وأعرب
يرون احتمالي غصة ويزيدهم ... لواعج ضغن انني لست أغضب
وأعرض عن كاس النديم كانها ... وميض غمام غائر المزن تحلب
وقور فلا الالحان تأسر عزمتي ... ولا تمكر الصهباء بى حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء الا بوصفها ... ولا أنطق العوراء والقلب مغضب
تحلم عن كر القوارص شيمتي ... كأن معيد الذم بالمدح مطنب
لساني حصاة يقرع الجهل بالحجى ... اذا نال مني العاضة المتأوب
ولست براض ان تمس عزائي ... فضالات ما يعطى الزمان ويسلب
غرائب آداب حباني بحفظها ... زماني وصرف الدهر نعم المؤدب
تريشنا الأيام ثم تهيضنا ... ألا نعم البادى وبئس المعقب
نهيتك عن طبع اللئام فانني ... أرى البخل يؤتى والمكارم تطلب
تعلم فان الجود فى الناس فطنة ... تناقلها الاحرار والطبع أغلب
تضافرني فيك الصوارم والقنا ... ويصحبني منك العذيق المرجب
نصحت وبعض النصح للقوم هجنة ... وبعض التناجي بالعتاب تعتب
فان أنت لم تعط النصيحة حقها ... فرب جموح كل عنه المؤدب
سقا الله أرضاً جاوز القطر روضها ... اذ المزن يسقي والاباطح تشرب
ذكرت بها عهد الشباب لحسرة ... أفدت وقدفات الذى كنت أطلب
ويعجبني منها النسيم اذا هفا ... الا كل ما سرى عن القلب معجب
سكنتك والايام بيض كأنها ... من الطيب فى أثوابها تتقلب

وبرق رقيق الطرتين لحظته ... اذ الجو خوار المصابيح اكهب

نظرت وألحاظ النجوم كليلة ... وهيهات دون البرق شاو مغرب

فما الليل الا فحمة مستشقة ... وما البرق الا جمرة تتلهب

أمن بعد ان جالتها ورق الدجى ... سراعاً وأغصان الازمة تجذب

وعدنا بها ممعوطة بنسـ ـوعها ... كما صافح الأرض الغراء المعقب

كأن تراجيع الحداة وراءها ... صفير تعاطاه اليراع المثقب

تهز ظنوني في المآرب أربة ... ويجنب عزمي في المطالب مطلب

وردنا بها ماء الظلام سواغبا ... ولليل جو بالدراري معشب

تنفر ذود الطير عن وكراتها ... وكل اذا لقيته متغرب

وتلتذ رشف الماء رنقاً كأنه ... مع العز ثغر بارد الظلم أشنب

أذعنا لها سر الكرى من عيوننا ... وسر العلى بين الجوانح يحجب

حرام على المجد ابتسامي لقربه ... وما هزني فيه العناء المقطب

ودهماء من ليل التمام قطعتها ... اغني حداء والمراسيل تطرب

ولو شئت غنتني حمام عشية ... ولكنني من ماء عيني أشرب

أقول اذا خاض السميران في الدجى ... أحاديث تبدو طالعات وتغرب

الا غنياني بالحـ ـديث فانني ... رأيت ألذ القول ما كان يطرب

غناء اذا خاض المسامع لم يكن ... أمينا على جلبابه المتجلبب

ونشوان من خمر النعاس ذعرته

وطيف الكرى في العين يطفو ويرسب

له مقلة يستنزل النوم جفنها ... اليه كما استرخى على النجم هيدب

سريت فجاج الارض غفلا ومعلما ... تجد بها أيدي المطايا وتلعب

وما شهوتي لوم الرفيق وانما ... كما يلتقي في السير ظلف ومخلب

عجبت لغيري كيف سار نجيمها ... وسيري فيها يا ابنة القوم أعجب

أغـير وسرجي بالنجاد مقلد وأنوى وبيتي بالعوالى مطنب
ومصقولة الاعطاف فى جنباتها مراح لاطراف الرماح وملعب
تجر علـى متن الطريق عجاجة يطاردها قرن من الشمس أعضب
نهار بلألاء السـيوف مفضض وجو بحمراء الانابيب مذهب
ترى اليوم محمر الحواشى كانمـا على الجو غرب من دم يتصبب
صدمنا بها الاعداء والليل ضارب بأرواقه جون الملاطن أخطب
أخذنا عليهم بالصوارم والقنا وراعي نجوم الليل حيران مغوب
يراعون أسفار الصـباح وانمـا وراء لثام الليل يوم عصبصب

وكل ثقيل الصدر من حلب القنا
خفيف الشوا والموت عجلان مقرب

يجم اذا ما استرعف الكر جهده كما جمع الغدران والماء ينضب
وما الخيل الا كالقداح يجيلها لغنم فاما فائز أو مخيب
دعوا شرف الاحساب يا آل ظالم فلا الماء مورود ولا الترب طيب
لئن كنتم فى آل فهر كواكبا اذا غاض منها كوكب فاض كوكب
فنعتى كنعت البدر ينسب بينكم جهارا وما كل الكواكب تنسب
صحبتم خضاب الزاعبيات ناصلا ومن علق الاقران مالا يخضب
أهذب في مدح اللئام خواطرى فاصدق فى حسن المعانى واكذب
وما المدح الا في النبى وآله يرام وبعض القول ما يتجنب
وأولى بمدحي من أعز بفخره ولا يشكر النعماء الا المهذب
أرى الشعر فيهم باقياً وكأنما تحلق بالأشعار عنقاء مغرب
وقالوا عجيب عجب مثلى بنفسه وأين على الايام مثل أبى أب
لعمرك ما أعجبت الا بمدحهم ويحسب انى بالقصائد معجب
أعد لفخرى في المقام محمدا وادعو عليا للعلاء حين أركب

قال البارودي وترجم لها بقوله وقال يروض القول على روى قصيدة الشريف :

سواى بتحنان الاغاريد يطرب	وغيري باللذات يلهو ويعجب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبه	ويملك سمعيه اليراع المثقب
ولكن أخوهم اذا ما ترجحت	به سورة نحو العلا راح يدأب
نفى النوم عن عينيه نفس أبية	لها بين أطراف الاسنة مطلب
بعيد مناط الهم فالغرب مشرق	اذا مارمى عينيه والشرق مغرب
له غدوات يتبع الوحش ظلها	وتغدو على آثارها الطير تنعب
همامة نفس اصغرت كل مأرب	فكلفت الايام ماليس يوهب
ومن تكن العلياء همة نفسه	فكل الذي يلقاه فيها محبب
اذا أنا لم أعط المكارم حقها	فلا عزني خال ولا ضمني أب
ولا حملت درعي كميت طمرة	ولا دار في كفي سنان مذرب
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة	لدى يدا أغضى لها حين يغضب
فلست لأمر لم يكن متوقعا	ولست على شيء مضى أتعتب
أسير على نهج يرى الناس غيره	لكل امرئ فيما يحاول مذهب

وانى اذا ما الشك أظلم ليله
وأمست به الاحلام حيرى تشعب

صدعت حشا في طرتيه بكوكب	من الرأى لا يخفى عليه المغيب
وبحر من الهيجاء خضت عجاجه	ولا عاصم الا الصفيح المشطب
تظل به حمر المنايا وسودها	حواسر في ألوانها تتقلب
توسطته والخيل بالخيل تلتقي	وبيض الظبى في الهام تبدو وتغرب
فما زلت حتى بين الكر موقفي	لدى ساعة فيها العقول تغيب
لدن غدوة حتى أتى الليل والتقى	على غيهب من ساطع النقع غيهب

كذلك دأبي في المراس وانني لا مرح في غي التصابي وألعب
وفتيان لهو قد دعوت وللكرى خباء بأهداب الجفون مطنب
الى مربع يجرى النسيم خلاله بنشر الخزامي والندى يتصبب
فلم ينض ان جاءوا ملبين دعوتي سراعا كما وافي على الماء ربرب
بخيل كارام الصريم وراءها ضواري سلوق عاطل ومليب
من اللاء لا يأ كلن زاد اسوى الذي
يضرسنه والصيد أشهى واعذب
ترى كل محمر الحماليق فاغر الى الوحش لا يألو ولا يتنصب
يكاد يفوق البرق شدا اذا انبرت له بنت ماء أو تعرض ثعلب
فملنا الى واد كان تلاءه من العصب موشى الحبائك مذهب
تراح به الآمال بعد كلالها ويصبو اليه ذو الحجي وهو أشيب
فبينا نرود الارض بالعين اذ رأى ربيئتنا سربا فقال الا اركبوا
فقمنا الى خيل كأن متونها
من الضمر خوط الضمير ان المشذب
فلما انتهينا حيث أخبر أطلقت بزاة وجالت في المقاود اكلب
فما كان الا لفتة الجيد ان علت قدور وفار اللحم وانفض مأرب
وقلنا لساقينا أدرها فانما قصارى بني الايام ان يتشعبوا
فقام الى راقود خمر كأنه اذا استقبلته العين اسود مغضب
يمج سلافا في اناء كأنه اذا ما استقلته الانامل كوكب
فلم نأل ان دارت بنا الارض دورة
وحتى رأينا الافق ينأى ويقرب
الى ان تولى اليوم الا أقله وقد كادت الشمس المنيرة تغرب
فرحنا نجر الذيل تيها لمنزل به لاخي اللذات واللهو ملعب

مسارح سكير ومربض فاتك ... ومخدع أكواب به الخمر تسكب
فلما رآنا صاحب الدار أشرقت ... أساريره زهوا وجاء يرحب
وقال انزلوا يا بارك الله فيكمو ... فعندي لكم ماتشتهون وأطيب
وراح الى دن تكامل سـ نه ... وشيب فوديه من الدهر أحقب
فما زال حتى استل منه سبيكة ... من الخمر تطفو في الاناء وترسب
يحوم عليها الطير من كل جانب ... ويسري عليها الطارق المتأوب
فياحسن ذاك اليوم لو كان باقيا ... ويا طيب هذا الليل لو دام طيب
يود الفتى مالا يكون طماعـ ة ... ولم يدر أن الدهر بالناس قلب
ولو علم الانسان ما فيـه نفعـه ... لأبصر ما يأتي وما يتجنب
ولكنها الاقدار تجري بحكمها ... علينا وأمر الغيب سر محجب
نظن بأنا قادرون واننا ... نقادكما قيد الجنيب ونصحب
فرحمة رب العالمين على امرئ ... أصاب هواه اودرى كيف يذهب

ونذكر هنا اتماماً للفائدة ماقاله السيد حسين المرصفي صاحب «الوسيلة الادبية» تعليقا على هاتين القصيدتين . « يقول الشريف في مطلع قصيدته والذي يليه . طلب الانسان ما أحب من أعلى الرتب وأرفع الاحوال طلب حق أو فضيلة وذلك مرضي لله مندوب اليه ليس للناس فيه موضع عذل أو تأنيب بخلاف غيره من الطلب فانه يوجب سخط الله فلا يعذر صاحبه واذا يجد الناس موضعاً للعذل والتأنيب وهو التعنيف أو معنى البيت الثانى اذا لم تكتف بالله عاذراً فلا تأمله فى الناس فانما هم بين عاذل أو مؤنب ويكون شكاية من قلة الانصاف . وفى قوله وقد شرع فى ذكر فضائله ملكت بحلمي جميع التجريد فالحلم هو الفرصة والدهر هو مفتول الذراعين الاغلب وتلك صفة الاسد أي مندمج الذراعين غليظ العنق .وهو تصدير

الموهوم بالمحسوس وحاصل المعنى ان شدائد الدهر لاتذهب بحلمه ثم قال فيا بعد انه على صغر سنه كبير الهمة واسترسل في ذكر مناقب نفسه حتى اتم الفصل ثم خاطب صاحبه ثم طلب السقيا الارض أعطشت وسقى غيرها وتأسف عليها واتبع ذلك بذكر برق بلحظه ثم ذكر طلبا واخفاقا في قوله أمن بعد ان جالتها . ثم وصف ليلة سارها في قوله ودرهما من ليل التمام ثم وصف خيلا قصد بها الاعداء في قوله ومصقولة الاعطاف ثم هجا ومدح في قوله دعوا شرف الاحساب الى آخره فانظر هداك الله بنور البصيرة الى هاتين القصيدتين تجدهما قد ابتدرتا في البلاغة وحسن السياق غاية بلغتاها معا وذلك فضل يؤتيه الله من يشاء » .

***

وقال في منفاه

ردوا على الصبا من عصري الخالي ... وهل يعود سواد اللمة البالي

ماض من العيش ما لاحت مخائله ... في صفحة الفكر الاهاج بلبالي

سلت قلوب فقرت في مضاجعها ... بعد الحنين وقلبي ليس بالسالي

لم يدر من بات مسرورا بلذته ... اني بنار الاسى من هجره صالي

ياغاضبين علينا هل الى عدة ... بالوصل يوم أناغي فيه اقبالي

غبتم فأظلم يومي بعد فرقتكم ... وساء صنع الليالي بعد اجمال

قد كنت أحسبني منكم على ثقة ... حتى منيت بما لم يجر في بالي

لم أجن في الحب ذنباً أستحق به ... عتباً ولكنها تحريف أقوال

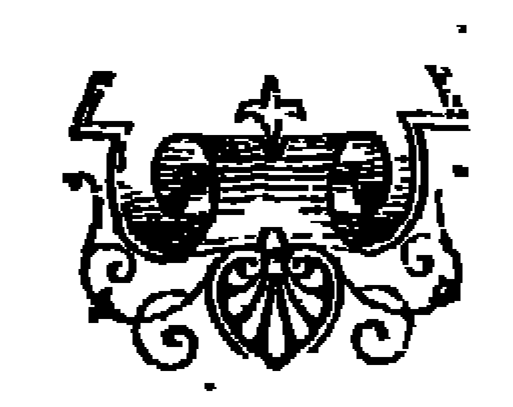
ومن أطاع رواة السوء نفره ... عن الصديق سماع القيل والقال

أدهى المصائب غدر قبله ثقة ... وأقبح الظلم صد بعد اقبال

لاعيب فيّ سوى حرية ملكت ... أعنتي عن قبول الذل بالمال

تبعت خطة آبائي فسرت بها ... على وتيرة آداب وآمال
فما عدا خيال الغدر في خلدي ... ولا تلوح سمات الشر في خالي
قلبي سليم ونفسي حرة ويدي ... مأمونة ولساني غير ختال
لكنني في زمان عشت مغترباً ... في أهله حين قلت فيه أمثالي
بلوت دهري فما أحمدت سيرته ... في سابق من لياليه ولا تالي
حلبت شطريه من يسر ومعسرة ... وذقت طعميه من خصب وإمحال
فما أسفت لبؤس بعد مقدرة ... ولا فرحت بوفر بعد اقلال
عفافة نزهت نفسي فما علقت ... بلوثة من غبار الذم أذيالي
فاليوم لا رسني طوع القياد ولا ... قلبي الى زهرة الدنيا بميال
لم يبق لي أرب في الدهر أطلبه ... الا صحابة حر صادق الخال
وأين أدرك ما أبغيه من وطر ... والصدق في الدهر أعيا كل محتال
لا في (سرنديب) لي الف أجاذبه ... فضل الحديث ولا خل فيرعى لي
أبيت منفرداً في رأس شاهقة ... مثل القطامي فوق المربأ العالي
اذا تلفتّ لم أبصر سوى صور ... في الذهن يرسمها نقاش آمالي
تهفو بي الريح أحياناً ويلحفني ... برد الطلال ببرد منه أسمالي
ففي السماء غيوم ذات أروقة ... وفي الفضاء سيول ذات أوشال
كأن قوس الغمام الغر قنطرة ... معقودة فوق طامي الماء ميال
اذا الشعاع تراءى خلفها نشرت ... بدائعاً ذات ألوان وأشكال
فلو تراني وبردي بالندى لثق ... لخلتني فرخ طير بين أدغال
غال الردى أبويه فهو منقطع ... في جوف عيناء لا راع ولا وال
أزيغب الرأس لم يبد الشكير به ... ولم يصن نفسه من كيد مغتال
كأنه كرة ملساء من أدم ... خفية الدرز قد علت بجريال
يظل في نصب حران مرتقبا ... نقع الصدى بين أسحار وآصال

يكاد صوت البزاة القمر يقذفه — من وكر د بين هابي الترب جوال
لا يستطيع انطلاقاً من غيابته — كأنه ! عو معقول بعقال
فذاك مثلي ولم أظ لم وربما — فضلته بجوى حزن واعوال
شوق ونأي وتبريح ومعتبة — ياللمحبة من غدري واهمال
أصبحت لا أستطيع الثوب أسحبه — وقد أكون وضافي الدرع سربالي
ولا تكاد يدي تجري شبا قلمي — وكان طوع بناني كل عسال
فان يكن جف عودي بعد نضرته — فالدهر مصدر ادبار واقبال
علام أجزع والأيام تشهد لي — بصدق ما كان من سعيي واغفالي
راجعت فهرس آثاري فما لمحت — بصيرتي فيه ما يزري بأعمالي
فكيف ينكر قومي فضل بادرتي — وقد سرت حكمي فيهم وأمثالي
أنا ابن قولي وحسبي في الفخار به — وان غدوت كريم العم والخال
ولي من الشعر أيات مفصلة — تلوح في وجنة الأيام كالخال
ينسى لها الفاقد المحزون لوعته — ويهتدي بسناها كل قوال
فانظر لقولي تجد نفسي مصورة — في صفحتيه فقولي خط تمثالي
ولا تغرنك في الدنيا مشاكلة — بين الانام فليس النبع كالضال
ان ابن آدم لولا عقله شبح — مركب من عظام ذات اوصال



فهرس الكتاب

صحيفه

فهرس المختارات

صحيفة

مؤلفات الكاتب

بالفرنسية

١ — « الثورة المصرية » في مجلدين مصدر كلاهما بمقدمة من قلم مسيو اولار مؤرخ الثورة الفرنسية والاستاذ بجامعة السربون ، وقد نفد الجزء الاول منها

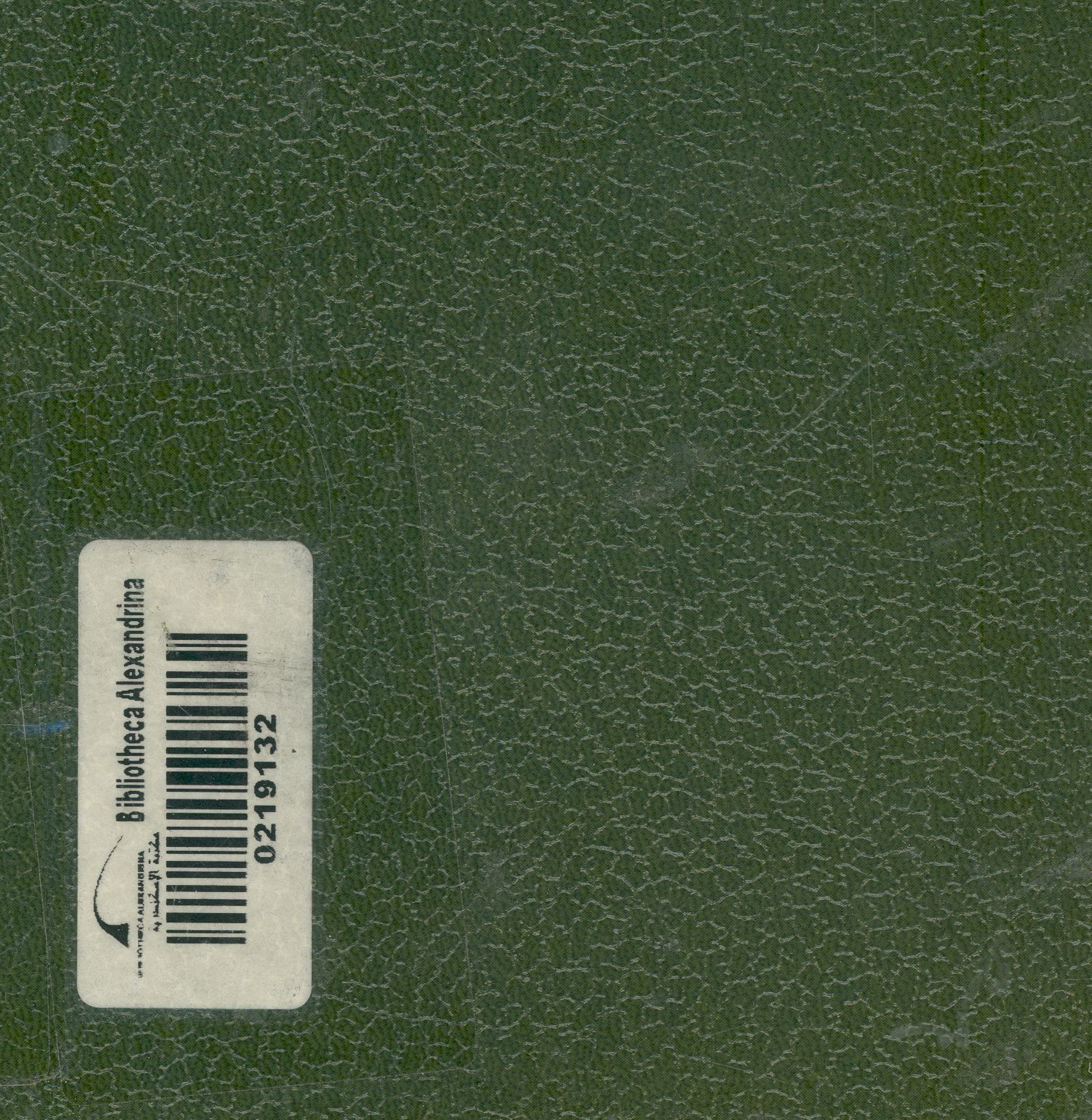
٢ — « المسألة المصرية » كتاب يشتمل على النقط الاساسية في تاريخ مصر الحديث من وقت دخول الفرنساويين مصر لغاية ثورة ١٩ (يطلب من مكتبة المؤيد بشارع محمد علي ومن المكاتب الفرنسية بالقاهرة والاسكندرية)

بالعربية

١ — « تاريخ الحركة الاستقلالية في ايطاليا » محاضرة القيت في الجامعة المصرية على قسمين وهي تتناول البحث في الحركة الايطالية ورجالها مازيني وكافور وفكتور عما نويل وجاريبلدى ومانان — مقدمة بقلم خليل مطران

٢ — « محمود سامى البارودى » بحث ادبي تاريخي في حياة المرحوم محمود باشا سامى البارودي وشعره ،

٣ — « اسماعيل صبري » حياته وشعره بحث على نسق البارودى (تحت الطبع)


Bibliotheca Alexandrina
0219132